سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

مكية وآيها ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ أي الرياح التي تذرو التراب وغيره، ذرت الريح الشيءَ نسفته وفرقته.

﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ ﴾ .

﴿ فَالْحَامِلَاتِ ﴾ أي السحب الحاملة للمطر ﴿ وِقْرًا ﴾ ثقلاً من الماء.

﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ ﴾ .

﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾ أي السفن الجارية في البحر، ويسراً صفة لمصدر محذوف، أي جرياً ذا يسر وسهولة.

﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾ .

﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ أي الملائكة التي تقسم الأمور، من الأمطار،

والأرزاق وغيرها، أقسم الله تعالى بهذه الأشياء، لشرف ذواتها، ولما فيها من الدلالة على عجيب صنعه تعالى، وقدرته، ثم ذكر الجواب فقال:

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أي الموعود وهو البعث، وعدٌ صادق وحقٌّ.

﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ أي الجزاء على الأعمال، لواقع وكائن، لأن من قدر على إبداع هذه البدائع، فهو قادر على البعث والجزاء.

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ عن ابن عباس: ذات الخَلْق المستوي، وقيل: ذات الطرائق المحكمة، والبنيان المتقن.

﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أيها المشركون جواب القسم ﴿ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ أي متخالف ومتناقض، وهو قولهم في حقه ﷺ تارة شاعر، وأخرى ساحر، وأخرى مجنون، وفي شأن القرآن الكريم: تارة شعر، وأخرى سحر، وأخرى أساطير الأولين.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي يصرف عن القرآن وعن الإيمان بالرسول عليه السلام من صُرِف، إذ لا صرف أفظع منه وأشد.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ دعاء عليهم كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾؟ وأصله الدعاء بالقتل، والهلاك، ثم جرى مجرى اللعن ﴿الخرَّاصون﴾ الكذَّابون، وهم أصحاب القول المختلف، كأنه قيل: قُتِلَ هؤلاء الخراصون الأفّاكون، ولعنوا على ما قالوا من الكذب والبهتان، في حق الرسول والقرآن.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ من الجهل والضلال يغمرانهم ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به.

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي متى يكون يوم الجزاء، لكن لا بطريق الاستعلام، بل بطريق الاستعجال والاستهزاء.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ جواب للسؤال، أي يقع يوم هم على النار، يحرقون ويعذبون بها وتقول لهم خزنة النار:

﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي عذابكم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ بطريق الاستهزاء.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لا يبلغ كنهها ولا يُقادر قدرها.

﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ ﴾ أي قابلين لما أعطاهم، راضين به على معنى أن كل ما آتاهم حَسَنٌ مرضي يُتلقى بحسن القبول ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ أي لأعمالهم الصالحة فلذلك نالوا ما نالوا، من الفوز العظيم.

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ أي كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل، وفيه مبالغة في تقليل نومهم، هجع هُجوعاً: نام بالليل.

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ أي هم مع قلة نومهم، وكثرة تهجدهم، يداومون على الاستغفار في الأسحار، كأنهم أمضوا ليلهم باقتراف الجرائم.

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ ﴾ أي نصيب وافر قد أوجبوه على أنفسهم تقرباً إلى الله تعالى وإشفاقاً للناس ﴿ لِّلسَّآئِلِ ﴾ لمن يسأل لحاجته ﴿ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ أي المتعفف الذي يحسبه الناس غنياً، فيحرم الصدقة لتعففه.

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ ﴾ دلالات واضحة على شؤونه تعالى، حيث إنها مدحوَّة كالبساط الممهَّد، وفيها سهل وجبل، وبر وبحر، وعيون متفجرة، ومعادن دفينة، والنباتات، وأنواع الأشجار، وأصناف الثمار، ودواب منبثة، قد رُتِّب كلها ودُبِّر لمنافع ساكنيها ﴿ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ أي للموحِّدين، الذين سلكوا الطريق السويَّ، بعيون باصرة، وأفهام نافذة.

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ ﴾ آيات إذ ليس في العالم شيء إلاَّ في الأنفس له نظير، يدل دلالته على ما انفرد به، من الهيئات النافعة، والمناظر البهية، والتركيبات العجيبة، والتمكن من الأفعال البديعة، واستنباط الصنائع المختلفة، واستجماع الكلمات المتنوعة، وحسبك بالقلب والدماغ، وما ركز فيه من العقل والفكر، وبالألسن والنطق، وما في تركيبها ولطائفها، من الآيات الدالة على حكمة مبدعها، ومدبرها، وقدرة صانعها، فتبارك الله أحسن الخالقين!! ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾؟ أي ألا تنظرون فتبصرون قدرة الله بعين البصيرة؟.

﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ ﴾ أي أسباب رزقكم ومعاشكم وهو المطر، فإنه سبب الأقوات ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من الثواب، لأن الجنة في السماء.

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ أي أقسم لكم برب السماء والأرض إنما

توعدون من الرزق، والبعث، والجنة والنار، لحق ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي كما أنه لا شك لكم في أنكم تنطقون، ينبغي أن لا تشكوا في حقيته.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾؟ تفخيم لشأن الحديث، وتنبيه على أنه ليس مما علمه رسول الله ﷺ بغير طريق الوحي ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي المعظّمين عند الله، وعند إبراهيم، حيث خدمهم بنفسه وبزوجته، وإكرام إبراهيم عليه السلام لهم، ببشاشة الوجه أولاً، وبالإجلاس في أحسن المواضع ثانياً، وتعجيل القِرَى ثالثاً.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي أنتم قوم منكرون، أنكرهم عليه السلام لأن أوضاعهم وأشكالهم تخالف أشكال أهل البلدة، إذ قدموا عليه في صورة شبان حسان، عليهم مهابة عظيمة، خلاف ما عليه الناس، وإنما قاله في نفسه، من غير أن يشعرهم بذلك، لا أنه خاطبهم جهراً لأن فيه من عدم الأنس ما لا يخفى، ولو سألهم من أول الأمر عن حقيقتهم، لكشفوا أحوالهم عند ذلك، ولم يتصدَّ لمقدمات الضيافة، قال تعالى في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ فدل على أن إنكارهم كان حاصلاً بعد تقريبه العجل لهم ليأكلوا منه.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي ذهب إليهم على خفية من ضيفه، فإن من أدب المضيف أن يبادره بالقِرَى، من غير أن يُشعر به الضيف، حذراً من أن يكفّه ويمنعه، راغ فلان إلى كذا مال إليه سرّاً ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ الفاء

فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت، بدلالة الحال عليها، أي فذبح عجلاً فشواه فجاء به.

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ ﴾.

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ بأن وضعه لديهم، وهذا من آداب المضيف أن يقدم الطعام إلى الضيف، ولا يحوجهم إلى السعي إليه ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ منه؟ إنكاراً لعدم تعرضهم للأكل.

﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ ﴾.

﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ ﴾ أي أضمر في نفسه ﴿ خِيفَةٗۖ ﴾ لتوهم أنهم جاؤوا للشر، قيل: «من لم يأكل طعامك، لا يحفظ ذِمامك» أي ذمتك وكرامتك ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ ﴾ إنا رسل الله، فعرفهم وأمِنَ منهم، وقيل: مسح جبريل عليه السلام العجل، فقام ولحق بأمه ﴿ وَبَشَّرُوهُ ﴾ في سورة الصافات ﴿وبشرناه﴾ أي بواسطتهم ﴿ بِغُلَٰمٍ ﴾ وهو إسحق عليه السلام عند الجمهور ﴿ عَلِيمٖ ﴾ أي يكمل علمه إذا بلغ، وفيه بشارة بحياته حتى يكون من العلماء النابغين.

﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩ ﴾.

﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾ سارة رضي الله عنها لمَّا سمعت بشارتهم، وكانت في زاوية تنظر إليهم ﴿ فِي صَرَّةٖ ﴾ أي في صيحة وضجة، من الصرير وهو شدة الصياح ﴿ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا ﴾ أي لطمته من الحياء، وقيل: ضربت بأطراف أصابعها جبينها، كما يفعله المتعجِّبُ ﴿ وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴾ أي أنا عجوز عاقر، فكيف ألد؟.

﴿ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠ ﴾.

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾ مثل ذلك القول الكريم ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ أي قضى الله وحكم، وإنما نخبرك به عنه تعالى، لا أنَّا نقوله من تلقاء أنفسنا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي الحكيم في صنعه، العليم بشؤون خلقه، فيكون قوله حقاً، وفعله متقناً لا محالة، ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط، بل مع إبراهيم أيضاً، حسبما شرح في سورة الحِجْر.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي لإهلاك المجرمين من قوم لوط.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي بعدما قلبنا قراهم، وجعلنا عاليها سافلها حسبما فصل في سورة هود ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي طين متحجِّر، هو السجيل.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي المجاوزين الحد في الفجور.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ حكاية من جهته تعالى، لما جرى على قوم لوط، بطريق الإجمال، أي: فباشروا ما أُمروا به فأخرجنا ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي في قوم لوط ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن آمن بلوط عليه السلام، وفيه بيان القدرة والاختيار، فإن البلاء والعذاب يصيب البر والفاجر، فلمَّا ميز الله دلَّ على الاختيار.

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ ﴾ أي غير أهل بيت ﴿ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ قيل هم لوط وأهل بيته وكانوا نحو ثلاثة عشر شخصاً، وفيه إشارة إلى أن الكفر والفسق إذا فشيا، لا تنفع عبادة المؤمنين عن رفع البلاء، بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة، وفيه شرذمة يسرفون، فالحكم للغالب في البلاد والعباد.

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً ﴾ أي علامة دالة على ما أصابهم من العذاب، هي تلك الأحجار التي رُمُوا بها، وجعل عاليها سافلها ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أي من شأنهم أن يخافوه، لسلامة فطرتهم، دون من عداهم، من ذوي القلوب القاسية.

﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ وَفِى مُوسَىٰٓ ﴾ أي وجعلنا في قصة موسى آية وعبرة ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة ظاهرة، هي ما ظهر على يديه من المعجزات الواضحة.

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ أي بما يتقوى به من ملكه وعسكره، فإن الركن اسمٌ لما يُركن إليه الشيءُ ﴿ وَقَالَ سَٰحِرٌ ﴾ أي هو ساحر ﴿ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ كأنه نسب ما ظهر على يديه عليه السلام من الخوارق إلى الجن، وتردَّد في أنه حصل ذلك بسعيه وباختياره، وهذا التردُّد دليل الافتراء والبهتان.

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ أي فأغرقناهم في البحر، وفيه من الدلالة على عظم شأن القدرة الربَّانية، كأنه قيل: واتخذ أولياءه وأركانه وعساكره فلم ينفعوه، وأخذه الله عزَّ وجلَّ وأتباعه، وألقاهم جميعاً في البحر ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي آياتٍ بما يُلام عليه، من الكفر والعصيان.

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

﴿ وَفِى عَادٍ ﴾ أي وفي إهلاك عاد آيةٌ وعبرة ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴾ وُصفت بالعقم لأنها أهلكتهم، وقطعت دابرهم، أو لأنها لم تتضمن لهم خيراً، من إنشاء مطر، أو إلقاح شجر، وهي النكباء أو الدبور.

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ ﴾ أي جرت عليه ﴿ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ هو كلُّ ما رَمَّ أي بلي وتفتَّت، من عظم، أو نبات، أو غير ذلك، والمعنى: ما تترك من شيء هبَّت عليه، من أنفسهم وأنعامهم، وأموالهم، إلاَّ أهلكته، وجعلته كالهشيم البالي، فإن قيل: الجبال والصخور أتت عليهما، وما جعلتهما كالرميم؟ نقول: المراد أتت عليه قصداً، وهو قوم عاد، ودورهم، ومواشيهم، وأموالهم.

﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ وَفِى ثَمُودَ ﴾ أي وجعلنا في ثمود وإهلاكهم آية وعبرة ﴿ إِذْ قِيلَ لَهُمْ

تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهو قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾[1] بعد عقرهم الناقة.

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ بيان لسبب الإهلاك، أي فاستكبروا عن الإيمان بالله، وطاعة رسولهم، وعقروا الناقة، قيل: قال لهم «صالح» عليه السلام: تصبح وجوهكم غداً مصفرة، وبعد غد محمرَّة، واليوم الثالث مسودَّة، ثم يصبِّحكم العذاب ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي فأخذتهم الصيحة المهلكة، صيحة العذاب، والصاعقة: النازلة من الرعد، وكل عذاب مهلك قيل: لما رأوا العلامات التي بيَّنها صالح عليه السلام، عمدوا إلى قتله، فنجاَّه الله من شرّهم ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها لأنها كانت نهاراً.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ أي بغيرهم، كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح وجعلنا هلاكهم عبرة ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي من قبل هؤلاء المهلكين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن الحدود، فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصي.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

---

(١) سورة هود، آية: ٦٥.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ بقوة، وهو بيان للوحدانية، وما تقدم كان بياناً للحشر ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي لقادرون من الوسع بمعنى الطاقة؛ قاله ابن عباس أو ﴿لموسعون﴾ السماء وما بينها وبين الأرض[1].

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ مهدناها وبسطناها ليستقروا عليها ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي الفارشون لها نحنُ.

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأجناس من الإنسان، والحيوان، والنبات ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي نوعين، ذكراً وأنثى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي كي تتذكروا، فتعرفوا أنه خالق الكل، وأنه المستحق للعبادة، وأنه قادر للإعادة، فتعملوا بمقتضاه.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي فاهربوا إلى الله، الذي هذه شؤونه بالإيمان والطاعة، تنجوا من عقابه، وتفوزوا بثوابه، وقوله: ﴿ففروا﴾ ينبىء عن

---

(١) انظر إلى عظمة الكون بعين البصيرة والعقل، لترى عظمة الخالق جل وعلا الكبير المتعال، فإن هذه الأرض التي نعيش فوق سطحها ـ على سعتها ـ ما هي إلاَّ ذرة صغيرة تسبح في هذا الكون الفسيح، الذي لا يعلم ضخامته وسعته إلا الله رب العالمين، خالق الإنسان ومبدع الأكوان، وتمعَّن وأنت تقرأ هذه الآية الكريمة ﴿بنيناها بأيد وإنَّا لموسعون﴾ عظمة الكون وما فيه من المجرات والكواكب، لتسبِّح الله مع المسبحين بقلبك ولسانك!!.

سرعة الإهلاك ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى، أي إني لكم من جهته تعالى منذر، بيِّنٌ كوني منذراً، وفي أمره تعالى للرسول ﷺ، بأن يأمرهم بالهرب إليه تعالى من عقابه، وتعليلُه بأنه ﷺ ينذرهم من جهته تعالى، لا من تلقاء نفسه، وعدٌ كريم بنجاتهم من المهروب، وفوزهم بالمطلوب.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ﴾ أي ولا تشركوا مع الله أحداً من بشر، أو صنم، أو حجر ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من الإشراك بعبادة غير الله ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي منذر واضح أمري، أخوفكم عقابه تعالى، وفيه تأكيد لما قبله، لكن لا بطريق التكرير كما قيل، بل بالنهي عن سببه، وإيجاب الفرار منه.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ هذه تسلية للرسول ﷺ، أي كما كذبك قومك يا محمد، فقالوا عنك إنك ساحر أو مجنون، كذلك قال المكذبون الأولون لرسلهم، ما أتاهم ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ من رسل الله ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ في حقه ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي رموهم بالسحر أو بالجنون، لجهلهم بمقام النبوة.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ﴾؟ إنكار وتعجيب من حالهم، واجتماعهم على تلك الكلمة الشنيعة، أي هل أوصى بعضهم بعضاً بالسخرية والتكذيب ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن تواصيهم بذلك، لأنهم لم يتلاق بعضهم مع بعض، في زمان واحد، بل حملهم على ذلك الطغيان والفجور، وهذه الآية دليل على أن كل رسول كُذّب.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي فأعرض عن جدالهم، فقد كرَّرت الدعوة، فلم يجيبوا عناداً ﴿ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ أي فلستَ على التولي، بعدما بذلتَ المجهود، بمسؤول عند الله ولا ملوم فقد بلغت الرسالة، وهذه تسلية أخرى للرسول ﷺ.

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

﴿ وَذَكِّرْ ﴾ أي افعل التذكير والموعظة ﴿ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنها تزيدهم بصيرة، وقوة في اليقين.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي وما خلقت البشر والجنَّ، إلا ليعرفوا ربهم ويعبدوه، فالمراد بالعبادة توحيد الله، ومعرفة دلائل وجوده، وطاعته سبحانه وتعالى، في كل ما أمر ونهى، وقيل: المعنى إلاَّ ليؤمروا بعبادتي، كما في قوله تعالى: ﴿وما أُمروا إلاَّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ وعن مجاهد واختاره البغوي معناه: إلاَّ ليعرفوه، والمعتبر هي المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى، لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة.

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ بيان لكون شأنه تعالى متعالياً عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم، في تحصيل معايشهم، وتهيئة أرزاقهم، أي ما أريد أن أصرِّفهم في تحصيل رزقي، ولا رزقهم، بل أتفضل عليهم برزقهم، وبما يُصلحهم ويعيشهم من عندي، فليشتغلوا بما خُلقوا له من عبادتي، وفي الآية تعريض بأصنام

المشركين، حيث كانوا يحضرون لها المآكل، فربما أكلتها الكلاب، ثم بالت على الأصنام.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾ أي المتكفل بأرزاق العباد، الذي يرزق كل من يفتقر إلى الرزق، وفيه تلويح بأنه تعالى غُنيٌّ عنه وعن العبادة ﴿ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ أي شديد القوة، الذي لا يلحقه في أفعاله مشقة.

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أي ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد، وهم كفار مكة ﴿ ذَنُوبًا ﴾ أي نصيباً وافراً من العذاب ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ ﴾ أي مثل نصيب أسلافهم المجرمين من العذاب، وهو مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب، وهو الدلو العظيم المملوء ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي لا يطلبوا مني أن أعجِّل لهم في المجيء به، فإنه واقع لا محالة، إن عاجلاً أو آجلاً، يقال استعجله، أي حثّه على العجلة وأمره بها، وهو جواب لقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير تسجيلاً عليهم بالكفر، وإشعاراً بعلة الحكم ﴿ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ وهو يوم القيامة الذي وعدهم الله عزَّ وجلَّ به في قوله: ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً﴾؟ الذين فجروا لهم العذاب الدنيوي، لأن الشيء إذا خرج عن الانتفاع به، لا يحفظ ويخلى المكان عنه، ألا ترى أن الدابة التي لا يبقى منتفعاً بها يخلّى عنها المكان

وتذبح، والطعام الذي يتعفن يفرَّغ منه الإناء ويرمى، فكذلك الكافر إذا ظلم فحسن إخلاء العالم عنه، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، و على آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الذاريات»

* * *

سُورَةُ الطُّورِ

مكية وهي تسع وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ مكتوب على وجه الانتظام، فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة، والمراد به القرآن الكريم، أو اللوح المحفوظ.

﴿ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ﴾ الرَّقُّ الجلدُ الذي يُكتب فيه، استعير لما يكتب فيه الكتاب من الصحيفة.

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ أي الكعبة المشرفة، وعمارتها بالحُجَّاج، والعُمَّار، والمجاورين.

﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾ أي السماء المحكمة البناء، ولا يخفى حسن موقع العنوان المذكور.

﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ أي المملوء أو الموقد، من قوله تعالى: ﴿وَإِذا البحار سُجِّرَتْ﴾ والمراد به الجنس.

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ أي إنَّ العذاب لنازلٌ حتماً بالكفار، الذي أُوعدوا به.

﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ من مزيدة للتأكيد، أي ليس هناك من يدفعه عنهم، وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها، لما أنها أمور عظام، تنبىء عن عظيم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته، الدالة على إحاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد وضبطها، الشاهدة بصدق أخباره التي من جملتها المقسم عليها.

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ المورُ: الاضطراب، والتردُّدُ في المجيء والذهاب، وقيل: هو تحرك في تموج، أي تتحرك وتضطرب اضطراباً عجيباً، وهو الزلزال الذي يكون عند قيام الساعة ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أي تزول عن وجه الأرض، فتصير هباءً منثوراً، والسبب لمورها وسيرها، قدرة الله، لأن الأرضَ، والسماء، والجبالَ، كلها كان لعمارة الدنيا، والانتفاع منها، ولا عودٍ إلى الدنيا فلم يبق فيها نفع، وتأكيد الفعل ﴿موراً﴾ و ﴿سيراً﴾ للإيذان بغرابتها، وخروجها عن الحدود المعهودة، أي موراً عجيباً، وسيراً بديعاً، لا يدرك كُنهها، وعلماء الطبيعة يقولون: إن زلزلة الأرض، ببخار يجتمع تحت الأرض، فيحرك الجبال، وما عرفوا أسرار القدرة الإلهية في تدمير الظالمين[1].

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي إذا وقع ذلك فويل لهم، ففيه إشارة بأمان أهل الإيمان، لأنه لمَّا قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ولم يبين بأنه موقعه بمن؟ فلما قال: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ للمكَذِبينَ﴾ علم المخصوص به، فمن لا يكذب لا يعذب، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأتِكُمْ نَذِيرٌ؟ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نذير فكذبنا﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ هذا ليس وصفاً للمكذبين، وإنما هو للذم، كما تقول: «الشيطان الرجيم» ولا تريد فصله عن الشيطان الذي ليس برجيم.

---

(١) كثرة الزلازل نذيرٌ بقرب الساعة، وخراب الدنيا، كما جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال:
«إن من أشراط الساعة ـ أي علاماتها ـ أن يتقارب الزمان، ويفشوَ الجهلُ، ويقلَّ العلمُ، وتكثر الزلازل، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرْجُ، قالوا: وما الهَرْج يا رسول الله؟ قال: القَتْلُ، القتْلُ»..

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ الدَّعُّ: الدفع العنيف، أي يدفعون إليها دفعاً عنيفاً شديداً، بأن تُغلَّ أيديهم على أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، فيدفعون إلى النار، ويدل هذا على هول النار، لأن خزنتها لا يقربون منها، وإنما يدفعون أهلها إليها من البعيد، فيقال لهم.

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا، ومعنى التكذيب تكذيبهم بالوحي الناطق بها، وعدم الإيمان بالبعث، والجنة والنار.

﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ ﴾؟ يعني كنتم تقولون للوحي والقرآن: هذا سحر، فهل هذا العذاب الذي تذوقونه سحر أيضاً؟ ﴿ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾؟ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا، حيث كنتم تقولون: ﴿إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾؟ وهذا تقريعٌ، وتهكم بهم، ولا ظلم بعذابهم، فإن الله تعالى قال: من كفر ومات كافراً، أعذبه عذاباً أبداً، ومن آمن أثيبه أبداً، فالكافر اختار الكفر بعدما سمع، فاختار عذابه أبداً.

﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ ٱصْلَوْهَا ﴾ أي ادخلوها وقاسوا شدتها ﴿ فَٱصْبِرُوٓا۟ ﴾ على عذابها ﴿ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ ﴾ عليه، فإنه لا محيص عنها ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي الأمران سيان: الصبرُ وعدمه، في عدم النفع، لا يدفع العذاب، ولا يُخفّفه ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا

﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي إنما تعاقبون وتعذبون بسبب أعمالكم القبيحة وكفركم بآيات الله، ولما كان الجزاء واقعاً حتماً، كان الصبر وعدمه سواء، في عدم النفع، لأن الصبر له مزية في العاقبة، بأن يجازى عليه الصابر، ولا عاقبة له هناك، لأنها دار الجزاء، لا دار الابتلاء.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ أي في أية جنات، وأي نعيم؟ على أن التنوين للتفخيم، أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين على أنه للتنويع.

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي ناعمين متلذذين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وهذا يفيد زيادة قدر النعم، حيث هي من عند ربهم ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وإظهار كلمة الرب للتشريف والتكريم.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أي يقال لهم كلوا واشربوا ﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾ أي لا تنغيص فيه ولا كدر، وفيه إشارة إلى خلو المأكول والمشروب، عما يكون فيهما من المفاسد في الدنيا ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسببه وبمقابلته.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ﴾ مصطفة ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي وأكرمناهم بزوجات حسان، من الحور العين، بيضٍ واسعات العيون، بيَّن الله تعالى أسباب النعيم على الترتيب، فأول ما يكون المسكن، ثم الأكل والشرب، ثم الفرش، ثم الزواج، فكلُّ ذلك مهيَّأٌ لأهل الجنة، دون تعب.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ أي لحقهم أولادهم وشاركوهم في الإيمان، والتنكير ﴿ بِإِيمَٰنٍ ﴾ للإشعار بأنه يكفي في الإلحاق، المتابعة في أصل الإيمان. وإن لم يكونوا كآبائهم في الأعمال الصالحة ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي في الدرجة، لما رُوي عن ابن عباس أنه قال: «إن الله تعالى ليرفع ذرية المؤمن في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه، لتقرَّ بهم عينه، ثم تلا هذه الآية» شفقة الأبوة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة ولهذا طيَّب الله قلوب عباده بالجمع بينهم، فإن خالف دينُه دين أبيه، صار له من حيث الشرع أب آخر ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم ﴾ أي وما نقصَّنا الآباء بهذا الإلحاق ﴿ مِّنْ عَمَلِهِم ﴾ من ثواب عملهم ﴿ مِّن شَىْءٍ ﴾ وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضل[1] ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أي كلُّ امرىء مرهونٌ عند الله تعالى بعمله، فإن كان عمله صالحاً فكَّه، وإلاَّ أهلكه، وقيل: المؤمن لا يكون مرهوناً بعمله، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إلاَّ أصْحابَ اليَمِينِ﴾[2] وهو قول مجاهد.

﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي وزدناهم على ما كان لهم من

---

(١) جمع الله لأهل الجنة أنواع السرور، بسعادتهم بأنفسهم ودخولهم الجنة، وبتزويجهم بالحور العين، وبالمؤانسة مع الإخوان في الجنة، وبالمآكل واللذائذ، والمشارب الهنيئة، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم، وبالخلود الدائم في دار النعيم كما قال سبحانه: ﴿وما هم منها بمخرجين﴾.

(٢) سورة المدثر، آية: ٣٨ ـ ٣٩.

مبادىء التنعُّم، وقتاً فوقتاً، ما يشتهون من فنون النعماء، من الفواكه، ولحم الطير.

﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا ﴾ أي يتعاطون فيها هم وجلساؤهم، بكمال رغبة واشتياق، كما ينبىء عنه التعبير بالتنازع ﴿ كَأْسًا ﴾ أي خمراً تسميةً لها باسم محلها ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أي في شربها، حيث لا يتكلمون في أثناء الشرب بلغو الحديث، وسقط الكلام ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله، أي ينسب إلى الإثم لو فعله، كما هو ديدن الشاربين في الدنيا، وإنما يتكلمون بالحِكَم، وأحاسن الكلام، ويفعلون ما يفعله الكرام.

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ بالكأس ﴿ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ﴾ أي مماليك مخصوصون بهم[1] ﴿ كَأَنَّهُمْ ﴾ في الحسن والصفاء ﴿ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ مصون في الصدف لم تمسه الأيدي.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً آخر، عن

---

(١) أفاد التنكير في قوله سبحانه: ﴿غلمان لهم﴾ أن كل من يدخل الجنة، يجد له خدماً لم يعرفهم، وليس في الجنة من يقوم بالخدمة لِنفسه، فحال أهل الجنة كحال الملوك والعظماء، يجدون من يخدمهم لكنْ هنا بالوظيفة والمال، وهناك بالملك والتشريف، وإذا كان الخدم كاللؤلؤ المكنون في البياض والصفاء، فكيف بحال المخدومين؟ اللهم لا تحرمنا نعيم الجنة.

أحواله وأعماله، وما استحق به نيل هذه الكرامة في الجنة، تلذذاً واعترافاً بالنعمة والفضل العظيم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي المسؤولون، وهم كل واحد منهم في الحقيقة ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي خائفين من عذاب الله تعالى، معتنين بطاعة الله، وجلين من العاقبة.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالرحمة أو التوفيق للحق ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي عذاب النار، النافذة في المسام نفوذ السموم.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿نَدْعُوهُ﴾ أي نعبده ونتضرع إليه، ونسأله الوقاية من نار جهنم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ المحسن العطوف على عباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة الذي إذا عبد أثاب، وإذا سئل أجاب، وفيه إشارة إلى أنهم يعلمون ما جرى عليهم، في الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر، فتزداد لذة المؤمن، حيث يرى نفسه انتقلت من السجن إلى النعيم، وحسرة الكافر حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَذَكِّرْ﴾ أي فذكر يا محمد بالقرآن بما أنزل إليك من الآيات والذكر الحكيم، ولا تكترث بما يقولون ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ برحمة ربك وإنعامه عليك بالنبوَّة والعصمة ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما زعموا.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون هو ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي ننتظر به حوادث الدهر، وصروفه، حتى يهلك ويموت فنستريح منه، ومرادهم أنهم يتربصون موته عليه الصلاة والسلام.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ أي عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ أي بهذا التناقض في المقال، فإن الكاهن يكون ذا فطنة، ودقة نظر في الأمور، والمجنون مختل فكره، والشاعر ذو كلام موزون مخيل، فكيف تجتمع أوصاف هؤلاء في شخص واحد؟ والمعنى: أم تأمرهم عقولهم بهذا الكذب والبهتان؟ وفيه سخرية وتهكم بهم وبعقولهم ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزون الحد في المكابرة والعناد، ولا يحومون حول الرشد والسداد، ولذلك يقولون ما يقولون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه، والتقوُّلُ: التكلُّفُ في القول، ولا يستعمل إلا في الكذب ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه الأباطيل، مع علمهم ببطلان قولهم.

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ مثل القرآن في نظمه، وحسنه، وبيانه، مثله من حيثُ النظمُ، ومن حيثُ المعنى ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فيما زعموا، فإن صدقهم في ذلك يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله، بقضية مشاركتهم له ﷺ في البشرية والعربية، مع ما بهم من طول الممارسة للخطب والأشعار، وكثرة المزاولة لأساليب النظم والبيان.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي أم أُحدثوا من غير محدث، ومن غير رب ولا خالق؟ ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ لأنفسهم فلذلك لا يعبدون الله.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ﴾ أي أم هم الذين خلقوا السماوات والأرض؟ وهو أسلوب تهكمي لاذع، فما أحد يجرؤ أن يقول هما من خلقي، بل كانوا إذا سئلوا: من خلقكم؟ وخلق السماوات والأرض؟ قالوا: اللهُ ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي هم غير موقنين بأن الله واحد أحد، فرد صمد، بل لا يوقنون أصلاً بشيء ما.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ من النبوة والرزق حتى يقسموا النبوة على من شاؤوا، ﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ الغالبون على الأمور يدبرونها كيفما شاؤوا، حتى يدبروا أمر الربوبية.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ منصوب إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ﴾ صاعدين إلى كلام

الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب، حتى يعلموا ما هو كائن من الأمور التي يتقولون فيها رجماً بالغيب، إن ادعوا ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة، تصدِّق استماعه.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾؟ فيه تسفيه لهم، وإشعار بأن من هذا رأيه، لا يُعدُّ من العقلاء، فضلاً عن أنْ يترقى بروحه إلى عالم الملكوت فيطلع على الغيوب، والالتفات إلى الخطاب لتشديد الإنكار والتوبيخ.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ رجوع إلى خطابه ﷺ وإعراض عنهم، أي بل تسألهم أجراً على تبليغ الرسالة ﴿فَهُم﴾ لذلك ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ من التزامٍ ماليٍّ فادح ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ محملون الثقل فلذلك لا يتبعونك.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي اللوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي يحكمون فيه حتى يتكلموا في ذلك بنفي أو إثبات.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ﴾ هو كيدهم برسول الله ﷺ في دار الندوة بمكة ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يحيق بهم كيدهم ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزَّه الله عن إشراكهم، نزَّه تعالى نفسه عما يقولون[1].

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا﴾ أي قطعة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ لتعذيبهم ﴿يَقُولُوا﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ قدْ رُكِمَ أي جُمع بعضه على بعض، ولم يصدِّقوا أنه كِسْفٌ ساقط للعذاب.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ أي حتى يعاينوا يوم هلاكهم، يوم تصيبهم الصعقة، والمراد بها القتل يوم بدر، لا النفخة الأولى كما قيل، إذ لا يصعق بها، إلاَّ من كان حياً حينئذٍ.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي شيئاً من الإغناء، وعدم نفع كيدهم، يستدعي استعمالهم له، طمعاً في الانتفاع به، وليس ذلك إلاَّ ما دبروه في أمره ﷺ من الكيد، الذي من جملته خروجهم لحربه يوم بدر، أما النفخة الأولى فليست مما يجري في مدافعته الكيد والحيل، وقيل: هو يوم موتهم

---

(١) كررت في هذه السورة الكريمة ﴿أم﴾ خمس عشرة مرة، وكلها إلزامات، وليس للمخاطبين بها عنها جواب، وهي في جميع الآيات منقطعة؛ بمعنى «بل» و «الهمزة» أي بل أيقولون شاعر.. بل أيقولون كاهن.. إلخ ومعنى الهمزة الإنكار، فهو استفهام إنكاري، واستفهم تعالى مع علمه بهم وبما يقولون، تقبيحاً عليهم، وتوبيخاً لهم، كقول الشخص لغيره: أتعرف هذا أم أنت جاهل؟ مع علمه بجهله، وما أبدع هذه السخرية والازدراء بعقول المشركين!!.

وانتقالهم من النعيم إلى الجحيم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من جهة الغير في دفع العذاب عنهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي وإن لهؤلاء الظلمة ﴿عَذَابًا﴾ آخر ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون ما لاقوه من القتل، وهو القحط الذي أصابهم سبع سنين، وما وراءه وهو عذاب القبر، وعذاب الآخرة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كما ذكر.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي اصبر يا محمد على قضاء ربك وحكمه، بإمهالهم إلى اليوم الموعودِ، مع مقاساة الأحزان ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ﴾ أي في حفظنا وحمايتنا بحيث نراقبك، وجَمَع العين ﴿بأعيننا﴾ للتعظيم والتفخيم للإيذان بغاية الاعتناء بالحفظ ﴿وَسَبِّحْ﴾ نزهه تعالى عما لا يليق به ملتبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على نعمائه الجليلة التي لا تُحصى ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مكان قمت، قال سعيد بن جبير وعطاء: أي قل حين تقوم من مجلسك «سبحانك اللهم وبحمدك» وعن ابن عباس: حين تقوم من منامك، وقال الضحاك والربيع: إذا قمت إلى الصلاة فقل «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك».

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إفرادٌ لبعض الليل بالتسبيح، لما أن العبادة فيه أشق على النفس، وأبعدُ من الرياء، كما يلوح به تقديمه على الفعل ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ أي وقت إدبارها من آخر الليل، أي صلِّ لربك في آخر

الليل، حين تدبر وتغيب النجوم بضوء الصبح، قال ابن عباس: هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، للحديث الشريف: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»[1]. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلىٰ آله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الطور»

* * *

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود، وانظر جامع الأصول ٦/ ١٠.

سُورَةُ النَّجْمِ

مكية وهي اثنتان وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١)﴾.

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ المراد به إما نجم الثريا، فإنه اسم غالب له، ومنه قولهم: «إذا طلع النجم عشاءً. ابتغى الراعي كساءً» أو جنس النجوم ﴿إذا هوى﴾ أي إذا نزل، وفي القَسَم بذلك على نزاهته ﷺ عن شائبة الضلال والغواية، من البراعة البديعة وحسن الموقع، ما لا غاية وراءه، ومن شأن النجم أن يهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا، كأنه قيل: أُقسم بالنجم الذي يهتدى به إلى سواء السبيل.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ أي ما ضلَّ محمد وما عدل عن طريق الحق، الذي هو مسلك الآخرة، وما اعتقد باطلاً قط، أي هو في غاية الهدى والرشد، وهناك فرق بين الضلال والغي، فالضلال في مقابلة الهدى، والغي في مقابلة الرشد، أي ما ضلَّ في قوله، ولا غوى في فعله، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا

سَبيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ والخطاب لقريش، والمراد نفي ما ينسبون إليه ﷺ، وإيراده ﷺ بلفظ ﴿صاحبكم﴾ للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة، وباتصافه بغاية الهدى والرشاد، فإن طول صحبتهم له ﷺ، ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي ما يصدر نطقه بالقرآن، عن هواه ورأيه أصلاً.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما الذي ينطق به ﴿إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ من الله تعالى، قوله ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة مؤكِّدة، رافعة لاحتمال المجاز، مفيدة للاستمرار التجددي ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ دليل على أنه ﷺ ما ضلَّ وما غوى، ردّاً عليهم أقوالهم الباطلة ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وحيٌ﴾ أي ما هو إلاَّ وحيٌ من عند الله، ليس بقول كاهن ولا شاعر.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي مَلَكٌ شديد قواه، وهو جبريل عليه السلام، فإنه الواسطة بين الله ورسله، ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط، ثم قَلَبها بهم، وصاح صيحة بثمود، فأصبحوا جاثمين.

﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾﴾.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي حصافة في عقله ورأيه، ومتانة في دينه، وقيل ذو منظر حسن ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ أي فاستقام على صورته التي خلقه الله تعالى

عليها، دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي، وذلك أنه ﷺ أحب أن يراه في صورته التي جُبل عليها، وكان ﷺ بحراء، فطلع له جبريل عليه السلام من المشرق فسدَّ الأرض من المغرب، وملأ الأفق، فخرَّ ﷺ مغشياً عليه، فرجع جبريل في صورة الآدميين فضمه إلى نفسه، قيل: ما رآه أحد من الآدميين غير النبي ﷺ فإنه رآه مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء، وقيل: استوى بقوته على ما جعل له من الأمر.

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾.

﴿وَهُوَ﴾ جبريل عليه السلام ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي أفق الشمس، أو أفق السماء.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي أراد الدنو من النبي ﷺ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي استرسل من الأفق الأعلى، فدنا من النبي ﷺ حتى صار أمامه.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾.

﴿فَكَانَ﴾ أي مقدار امتداد ما بينهما ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ على تقديركم كما في قوله تعالى: ﴿أو يزيدون﴾ والمراد تمثيل ملكة الاتصال، وتحقيق استماعه لما أوحي إليه، بنفي البعد الملبس، وقال الضحاك: دنا محمد من ربه. روي عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: فأين قوله تعالى ﴿ثم دنا فتدلى﴾؟ قالت: ذلك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجل، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته[1].

---

(١) أخرجه الشيخان، ورواية البخاري ٨/٦٠٦ قالت عائشة لمسروق: «من حدَّثكَ أن محمداً رأى ربَّه فقد كذب، ولكنْ رأى جبريلَ عليه السلام في صورته مرتين».

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ فَأَوْحَىٰٓ ﴾ جبريل عليه السلام ﴿ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ أي إلى عبد الله محمد ﷺ، وإضماره قبل الذكر لغاية ظهوره، كقوله ﴿ما ترك على ظهرها﴾ ﴿ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ أي من الأمور العظيمة التي لا تفي بها العبارة، أو فأوحى الله تعالى حينئذ بواسطة جبريل ما أوحى إلىٰ عبده محمد ﷺ.

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ ﴾ فؤاد رسول الله ﷺ ﴿ مَا رَأَىٰٓ ﴾ أي ما رآه ببصره، من صورة جبريل عليه السلام، أي لم يشكَّ في أن ما رآه جبريل، لأن الأمور القدسية، تدرك أولاً بالقلب، ثم تنقل منه إلى البصر، فعلم رسول الله ﷺ أنه جبريل وليس بخيال.

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ .

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾؟ أي أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة.

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ أي وبالله لقد رأى جبريل في صورته مرةً أخرى في المعراج.

﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ .

﴿ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ هي شجرة نبق في السماء السابعة، عن يمين العرش، ثمرها كقلال هَجَر، وورقها كآذان الفيل، تنبع من أصلها الأنهار

التي ذكرها الله تعالى في كتابه، والمنتهى موضع الانتهاء، إليها ينتهي علم الخلائق، ولا يعلم أحد ما وراءها، من مَلَكٍ أو رسول.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أي الجنة التي يأوي إليها المتقون، أو أرواح الشهداء.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ الغشيانُ بمعنى التغطية والستر، أي ولقد رآه عند السدرة، وقت ما غشيها ما غشيها، مما لا يحيط به الوصفُ، كيفاً ولا كماً، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، استحضاراً لصورتها البديعة، وللإيذان بأن استمرار الغشيان بطريق التجدد، كما يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها، ويزورونها كما يزور الناس الكعبة، وقيل يغشاها سبحات أنوار الله عزَّ وجلَّ.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوزه مع ما شاهد من الأمور العجيبة المذهلة، وثبت في ذلك المقام العظيم، الذي تحار فيه العقول.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي والله لقد رأى الآيات، التي هي كبراها، حين عُرج به إلى السماء، فأُرِيَ من عجائب الملك والملكوت، ما لا يمكن أن يوصف.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي أخبروني ألهذه الأصنام كل شيء؟ وهي أصنام كانت لهم «فاللاتُ» كانت لثقيف بالطائف، على صورة رجل كان يلتُّ السويق ويطعمه الحاج، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه، وسميت صورته باسمه. و «العُزَّى» تأنيث الأعز كانت لغطفان، وهي شجرة سمرة كانوا يعبدونها فبعث رسول الله ﷺ خالد بن وليد فقطعها. و«مناة» صخرة لهزيل وخزاعة، فإنهم كانوا يذبحون عندها القرابين، سميت مناة لأن دماء المناسك تمنى عندها، أي تراق، ثم إنهم كانوا مع عبادتهم لها، يقولون: إن الملائكة، وتلك الأصنام بنات الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فقيل لهم توبيخاً وتبكيتاً: ﴿أفرأيتم﴾ إلخ والهمزة للإنكار، والمعنى: أعقيب ما سمعتم من آثار كمال عظمة الله تعالى، في ملكه وملكوته، ورأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها، جعلتموها شركاء لله تعالى؟.

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ توبيخ مبني على التوبيخ الأول، بنسبتهم إليه تعالى الإناث، مع اختيارهم لأنفسهم الذكور، أي ألكم يا معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهو «الذكور»، وله تعالى النوع المذموم - في نظركم - وهو الأنثى؟.

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى القسمة ﴿إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي جائرة حيث جعلتم له تعالى ما تستنكفون منه، ضِيزَىٰ من الضَّيْز وهو الجور.

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ ﴾ أي ما الأصنام إلا أسماء محضة، ليس فيها من معنى الألوهية شيء ﴿ سَمَّيْتُمُوهَآ ﴾ أي جعلتموها آلهة، وهي مجرد تسميات ألقيت على جمادات، لا تضر ولا تنفع، وما هي إلا أسماء، خالية عن المسميات ﴿ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ أي من برهان تتعلقون به ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما يتبعون فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها ﴿ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾ ألا توهم أن ما هم عليه حق توهماً باطلاً ﴿ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ أي ما تشتهيه أنفسهم الأمَّارة بالسوء ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ أي جاءهم الرسول من عند الله عزَّ وجلَّ بالبيان الساطع، والبرهان القاطع، على أن الله واحد لا شريك له، وفيه تأكيد على بطلان اتباع الظن، وهوى النفس، فإن اتباعهما من أي شخص قبيحٌ، وممن هداه الله تعالى بإرسال الرسل، وإنزال الكتب أقبح.

﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ انتقال من بيان أن ما هم عليه، غير مستند إلا إلى توهمهم، وهوى أنفسهم، إلى بيان أن ذلك ممّا لا يجدي نفعاً أصلاً، أي ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه، حتى يطمع في شفاعة الآلهة التي لا تكاد تكون تحت الوجود.

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ أي فالملك كله لله عزَّ وجلَّ فإن أمور الآخرة والأولى لله تعالى، وله الحكم فيهما، وليس لأحد أن يتحكم في شيء منهما.

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا ﴾ أي وكثير من الملآئكة لا تغني شفاعتهم عند الله شيئاً من الإغناء، في وقتٍ من الأوقات ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ ﴾ لهم في الشفاعة ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أن يشفعوا له ﴿ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ ويراه أهلاً للشفاعة، من أهل التوحيد والإيمان، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان، فهم محرومون من الشفاعة، فإذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذكر، فما ظنكم بحال الأصنام؟.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ وبما فيها من العقاب ﴿ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ يسمون كل واحد منهم ﴿ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴾ فإن قولهم: الملائكةُ بنات الله، هي تسمية الأنثى، والعرب الجاهليون رأوا تاء التأنيث في لفظ الملائكة، فقالوا إنها أولاد مؤنثة، وحكموا بأنهم بنات الله.

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ ﴾ أي يسمونهم والحال أنه لا علم لهم بما يقولون أصلاً ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ في ذلك ﴿ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ ﴾ الفاسد ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ ﴾ أي جنس الظن كما يلوح به الإظهار في موقع الإضمار ﴿ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴾ من الإغناء، فإن الحق لا يدرك إلاَّ بالعلم، والظنُّ لا اعتداد به في شأن المعارف الحقيقية، ولا يقوم مقام العلم اليقيني.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي فأعرض عن عبدة الأوثان، من المشركين الضالين، عمن أعرضوا عن ذكرنا، وهو القرآن المنطوي على علوم الأولين والآخرين ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾ راضياً بها، قاصراً نظره عليها، والمراد النهي عن دعوته إلى الهداية، فإن من أعرض عما ذكر، وانهمك في الدنيا، بحيث كانت هي منتهى همته، لا تزيده الدعوة إلاَّ عناداً، وإصراراً على الباطل.

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾أي التولي وقصر الإرادة على الحياة الدنيا ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ﴾ أي غاية علمهم ورأيهم، لا يجاوزونه إلى غيره حتى تجديهم الدعوة والإرشاد، والمراد من العلم مطلق الإدراك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ أي إن ربك يا محمد هو العالم بالشقي، والتقي، وهو العالم بمن أصرَّ على الضلال، وبمن هو أهل للهداية، فيعطي كلاً بحسبه، وفيه وعد ووعيد.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقاً، وملكاً، لا لغيره أصلاً ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي ليجازي المجرمين بعقاب ما عملوا من الضلال، وبسبب ما عملوا ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أي اهتدوا ﴿بِالْحُسْنَى﴾ أي بالمثوبة الحسنى التي هي الجنة، وبهذا يتبيَّن المسيء من المحسن، فمن

لا يجتنب الكبائر هو المسيء، ومن يجتنب الكبائر وما حرَّم الله تعالى فهو المحسن.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ أي هؤلاء المحسنون هم الذين ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ صيغة الاستقبال للدلالة على تجدُّد الاجتناب واستمراره ﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي الذنوب الكبيرة ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ أي التي قبحها واضح ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أي إلا ما قلَّ وصَغُر، فإنه مغفور ممن يجتنب الكبائر، اللمم بفتحتين هو الصغائر من الذنوب، التي لم يذكر الله تعالى عليها حداً، ولا عذاباً، والكبائر هي التي ذنبها عظيم، والفواحشُ: هي التي قبحُها واضح ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، على أن إخراج الصغائر عن حكم المؤاخذة، ليس لخلوها عن الذنب في نفسها، بل لسعة المغفرة الربانية ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي بأحوالكم يعلمها على التفصيل ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ في ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إنشاءً إجمالياً ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ وقت كونكم مستترين ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ على أطوار مختلفة مترتبة، لا يخفى عليه حال من أحوالكم، فكيف تخفىٰ عليه أعمالكم في الدنيا؟ فهو تعالى يعلم التقيّ والشقي، والبَرَّ والفاجر. ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي فلا تمدحوا أنفسكم وتنسبوها إلى التقى والصلاح على سبيل الإعجاب، فإن النفس خسيسة، إذا مدحت اغترت وتكبرت، وإذا كان الله أعلم بأحوالكم فأي حاجة إلى تزكية النفس؟ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي هو تعالى العالم بمن أخلص العمل، واتقى ربه في السر والعلن، فاكتفوا بعلمه تعالى عن علم الناس، وبجزائه عن ثناء الناس، وهذا إذا كان بطريق الإعجاب، أو للرياء، وأما من اعتقد أن ما عمله من الأعمال الصالحة بفضل الله تعالى وتوفيقه، ولم يقصد به

التمدح، لم يكن من المزكين أنفسهم، فإن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر لله تعالى.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾؟ عن اتباع الحق، والثبات عليه، قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان قد اتبع النبي ﷺ على دينه، فعيَّره بعض المشركين، وقالوا: أتركتَ دين الأشياخ؟ قال: إني خشيت عذاب الله!! فضمن له الرجل أن يتحمل عنه العذاب، إن أعطاه بعض ماله، فارتدَّ وأعطى للذي عيَّره بعض الذي ضمن له من المال، ومنعه تمامه.

﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا ﴾ أي شيئاً قليلاً مما تعهَّد له به من المال. ﴿ وَأَكْدَىٰٓ ﴾ أي قطع العطاء، من قولهم أكدى الحافِرُ إذا بلغ الكُدْية، أي الصلابة من الأرض، كالصخرة، وقيل: نزلت في العاص بن وائل، والأول أشهر.

﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾؟ أي أعند هذا الكافر علم بالأمور الغيبية، حتى يعلم أن صاحبه يحمل عنه العذاب؟.

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ أي حقوقه تعالى أي وفَّىٰ وأتم وبالَغَ بالوفاء بما عاهد الله تعالى، وتقديم موسى لما أن صحفه التي هي التوراة أشهر عندهم.

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ أي لا تؤاخذ ﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس ذنب غيرها، ولا تُعاقب بجرمٍ فعله أحد غيرها، إلاَّ إذا كان آمراً به.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي ليس للإنسان إلا عمله وسعيه، وأما شفاعة الأنبياء والملائكة، ودعاء الأحياء للأموات، وصدقتهم عنهم، وغير ذلك من الأمور النافعة للإنسان، مع أنها ليست من عمله قطعاً، فهي ثمرة الإيمان والصلاح، وهذا فضل من الله على المؤمن، ويشهد له ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إن أمي تُوفيت، أينفعها إنْ تصدَّقتُ عنها؟ قال: «نعم»[1] وما جاء في الأخبار من أن الصدقة والحج ينفعان الميت، فلكون الناوي له كالنائب عنه.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي يعرض عليه، ويُكشف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه، وفيه بشارة للمؤمنين، لأنهم يرون أعمالهم الصالحة، فيفرحون، وعقاب للكافرين، لأنهم يرون ويحزنون، فإن قيل: العملُ كيف يرى؟ قيل: على صورة جميلة أو قبيحة، أو مجاز عن الثواب والعقاب.

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا ٥/ ٢٨٩ ورواه مسلم رقم ١٦٣٠ ولفظه عن أبي هريرة أن رجلاً قال للنبي ﷺ «إن أبي مات ولم يوص، أفينفعه أن أتصدَّق عنه؟ قال: نعم».

﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ﴾ أي يجزى الإنسان سعيه ﴿ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أي الأتم والأكمل.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ أي انتهاء الخلق، ورجوعهم إليه تعالى، لا إلى غيره، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ﴾ والمخاطب بهذا إمَّا عامٌّ، تقديره: وإلى ربك أيها السامع، فعلى هذا فهو تهديد للمسيء، وحثٌّ للمحسن، وإما الرسول ﷺ فعلى هذا، ففيه تسلية له ﷺ فالمعنى: لا تحزن فإن إلى ربك المنتهى والرجوع، فيجازيك على صبرك أحسن الجزاء.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ أي هو الذي خلق الفرح والحزن، والسرور والغمَّ، فأضحك في الدنيا من أضحك، وأبكى من أبكى.

وقال مجاهد: أضحك المؤمنين، وأبكى الكافرين في العقبى.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ لا يقدر على الإماتة والإحياء غيرهُ، فإن أثر القاتل نقض البنية، وإنما يحصل الموت عنده، بفعل الله تعالى على العادة، وقيل: أمات الآباء، وأحيا الأبناء.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ أي تُدفق في الرحم، وفيه تنبيه على كمال القدرة، لأن النطفة متناسبة الأجزاء، يخلق الله تعالى

منها أعضاءً مختلفة، وطباعاً متخالفة، وخلق الذكر والأنثى أعجب، وهذا شيء لا يصل إليه فهم العقلاء، وإنما هو بقدرة الله، لا بفعل الطبيعة.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي الإحياء بعد الموت، وفاءً بوعده، وهو قول أكثر المفسرين، كقوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثم رَزَقَكُمْ، ثم يُميتُكم ثم يُحْييكُمْ﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي أغنى الإنسان ثم رضَّاه بما أعطاه، قال ابن عباس: أعطى فأرضى. وقيل المعنى: أغنى من شاء، وأفقر من شاء[1]، وفيه إشارة إلى فساد قول بعض الناس، من أن الغنى بكسب الإنسان وجهده، أو ببخته وطالعه.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ هو كوكب يطلع بعد الجوزاء في شدة الحرِّ، وكانت خزاعة تعبدها، سنَّ لهم عبادتها أبو كبشة رجلٌ من أشرافهم.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.

---

(١) هذا قول ابن زيد ثم قرأ: ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي يوسّع على من يشاء، ويضيّق على من يشاء. أقول: ولعل هذا القول أرجح، للتناسق البديع بين الآيات ﴿أضحك وأبكى﴾ و ﴿أمات وأحيا﴾ فيكون معنى ﴿أغنى وأقنى﴾ أي أغنى وأفقر، فيتم التناسق بين الآيات، والله أعلم.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهم قوم هود عليه السلام، وعاد الأخرى عاد إرم.

﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ أي ما أبقى أحداً من الفريقين، بل أهلكهم ودمَّرهم عن بكرة أبيهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي أهلكهم من قبل إهلاك عادٍ وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ أي أظلم من عاد وثمود، لأنهم كانوا يؤذونه ويضربونه، وينفِّرون الناس عنه، ثم عتوهم على الله تعالى بالمعصية والطغيان، وما أثَّر فيهم دعاؤه قريباً من ألف سنة.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ هي قرى قوم لوط، ائتفكت بأهلها أي انقلبت بهم ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي أسقطها إلى الأرض، بعد أن رفعها إلى السماء، وقيل: كانت عماراتهم مرتفعة، فأهواها بالزلزلة.

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ من فنون العذاب، وفيه من التهويل ما لا غاية وراءه.

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي تُشكِّك، والخطاب لكل إنسان مشرك، أي فبأي نعم الله، الدالة على وحدانيته وقدرته، تشكّك أيها الإنسان وتكذّب؟، وإسناد تتمارى إلى الواحد، باعتبار تعدده، بحسب تعدد متعلقه، وتسمية الأمور المعدودة آلاء، مع أن بعضها نِقَم، لما أنها أيضاً نِعم، من حيث إنها نصرةٌ للأنبياء، والمؤمنين، وفيها عظات وعبر للمعتبرين.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي ما ذُكر من أخبار المهلكين، إنذار من قبيل الإنذارات المتقدمة، التي سمعتم عاقبتها، وهذا الرسول منذر من المنذرين الأولين علمتم به.

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ أي دنت الساعة، الموصوفة بالدنو في قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وقعت الواقعة﴾.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي ليس لها نفس قادرة على كشفها وردِّها إذا غشيت الخلق.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي القرآن العظيم ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكاراً وعناداً!!.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً مع كونه أبعد شيءٍ من ذلك؟ ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حزناً على ما فرَّطتم من شأنه، وخوفاً من أن يحيق بكم ما حاق بالأمم المذكورة.

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾.

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي لاهون غافلون، أو مستكبرون، من سَمَدَ البعيرُ إذا رفع رأسه، قال الراغب: السامدُ: اللاهي الرافع رأسه، والسمود: اللهو. قيل: كان المشركون إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء واللهو ليشغلوا الناس عن استماعه.

﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾.

﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾ أي اسجدوا لله العظيم الجليل الذي خلقكم، وخصوه بالعبادة بدل أن تسخروا وتضحكوا، فأمامكم أهوال وشدائد، لا ينجي منها إلا الإيمان، والخضوع والخشوع للرحمن!!.

والصلاة على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النجم»

* * *

سورة القمر

مكية وهي خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ .

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ أي قربت القيامة، التي كل يوم يزداد قربها ﴿ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ أي انشقَّ نصفين، وعن ابن مسعود: رأيت حراء بين فلقتي القمر[1].

وعن عثمان بن عطاء عن أبيه أن معناه سينشق يوم القيامة، ويردُّه قوله تعالى:

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾ .

(١) قال ابن الجوزي: إن قوماً شذُّوا فقالوا: سيشنقُّ يوم القيامة، وهذا القول الشاذُّ لا يقاوم الإجماع، ولأن قوله تعالى: ﴿وانشقَّ﴾ لفظٌ ماضٍ، وحملُه على المستقبلِ يفتقر إلى قرينة، وليس ذلك موجوداً، وفي قوله سبحانه ﴿وإن يروا آيةً يعرضوا﴾ دلَّ على أنه قد حدث ذلك. اهـ من زاد المسير ٨/ ٨٨.

والجمهور على الأول، وهو المروي في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه «أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر مرتين»[1] ولا يقال: لو انشق لما خفي على أهل الأقطار، لأنه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم، وأنه حصل في الليل، ومعظم الناس نيام وغافلون، ومما هو المشاهد أن كسوف القمر وغيره يحدث في السماء، ولا يتحدث به إلا بعضُ الناس، ولا علم عند غيرهم بذلك، والمؤرخون تركوه لأنهم قالوا إنه مثل خسوف القمر، والقرآن أثبت وأدلّ دليل، وأقوى مثبتٍ له، وإمكانه لا يُشك فيه، وقد أخبر عنه الصادق، فيجب اعتقاد وقوعه.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ أي وإن ير المشركون معجزة واضحة ساطعة، دالة على صدق الرسول، يعرضوا عن الإيمان ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي ويقولوا سحر مستمر، مطرد دائم، يأتي به على مر الزمان، وقولهم ﴿مستمر﴾ يدل على أنهم رأوا قبله آيات أخر مترادفة، ومعجزات متتابعة، حتى قالوا ذلك.

﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ أي الرسول ﷺ، وما عاينوه مما أظهره الله تعالى على يده من المعجزات، كما كذبوا بانشقاق القمر ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ﴾ التي زينها الشيطان لهم، وقالوا سحر أعيننا، والقمرُ بحاله[2]، وذكرُهُم بلفظ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٧/ ١٨٢ ومسلم رقم ٢١٥٩ وتتمة الحديث «حتى رأوا حِرَاءَ بينهما».

(٢) طلب المشركون من رسول الله ﷺ معجزة جلية، تدل على صدق نبوته، وخصُّوا بالذكر أن يشقَّ لهم القمر، وأعطوه العهد والميثاق على أن يؤمنوا برسالته، ويتبعوه إن أجابهم إلى ما طلبوا، فدعا رسول الله ﷺ ربه فأجاب الله دعاءه وانشق القمر فلقتين وكانت ليلة بدر، فجعلوا يعركون أعينهم وينظرون فيرونه منشقاً إلى نصفين، نصف على جبل الصفا، ونصف على جبل قيقعان، حتى رأوا حراء بينهما، فقالوا: =

الماضي، للإشعار بأنها من عاداتهم القديمة، من ردِّ الحقِّ بعد الظهور ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي وكل أمر من الأمور مستقر، أي منتهٍ إلى غاية، يستقرُّ عليها لا محالة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرٌّ.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ أي في القرآن ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ أي أنباء القرون الخالية، الذين كذبوا رسلهم وعاقبتهم الوخيمة ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي ما فيه واعظ لهم وزاجر عن التمادي في الباطل، وهو أنباء المهلكين بسبب التكذيب.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي هذا القرآن العظيم، حكمة بالغة من ربِّ العزة والجلال ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾؟ أي فماذا تنفع الإنذارات، والزواجر، عن قوم أصمُّوا آذانهم عن سماع كلام الله، وهو الحكمة البالغة؟ فالمراد بالنُّذُر الإنذارات، والتخويف بالمواعيد.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمك بأن الإنذار لا يؤثر فيهم حينئذ، فمن ينصح شخصاً ولا يؤثر فيه النصح، يعرض عنه ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ أي يوم يدعو

= سحر محمد أعيننا!! فقال أبو جهل: اصبروا حتى يقدم علينا المسافرون، فإن رأوا مثل ما رأيتم فقد صدق، وإلا فهو سحر، فلما قدم المسافرون سألوهم فقالوا: رأيناه انشق في الليلة الفلانية، وفزعنا من ذلك، فقال أبو جهل اللعين والمشركون معه: سحر محمد الناس جميعاً، وهذا سحر مستمر أي دائم، فأنزل الله: ﴿وإن يروا آيةً يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾.

إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي منكر، فظيع، تنكره النفوس، لعدم العهد بمثله، وهو هول القيامة.

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ خشوعُ الأبصار: سكونُها على حال لا ينقلب يمنة ويسرة، كما في قوله تعالى: ﴿لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ وهو كناية عن الذلة والهوان، لأن ذلة الذليل، وعزة العزيز، تظهران في عيونهما ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموج والانتشار في الأمكنة، والجراد مَثَلٌ في الكثرة.

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أي حيارى، فزعين، مسرعين، مادِّي أعناقهم ناظرين ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ الذي يدعوهم إلى الحشر، أي إلى صوت الداعي ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي صعب شديد، وفي إسناد القول إلى الكفار، تلويحٌ بأن المؤمنين ليسوا كذلك، بل هو سهل يسير عليهم كقوله تعالى: ﴿على الكافرين غير يسير﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي فعل التكذيب قبل تكذيب قومك، قوم نوح ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ أي كذبوا عبدنا نوحاً شيخ الأنبياء عليهم السلام ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ أي لم يقتصروا على مجرد التكذيب، بل نسبوه إلى الجنون ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي وزُجر عن التبليغ، بأنواع الأذية، من زجرتُ العبدَ إذا نهرته عن فعل شيء، ولم يكتفوا بذلك بل توعَّدوه بالقتل، رمياً بالحجارة فقالوا: ﴿لَئِنْ لم تَنْتَهِ يا نُوحُ لتكونَنَّ مِنَ المَرْجُومين﴾.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ أي فانتقم لي منهم، وذلك بعد يأسه منه، وسرعان ما استجيب الدعاء، قال تعالى:

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ منصبٌّ بقوةٍ وغزارة، وهو تمثيلٌ لكثرة الأمطار، وشدة انصبابها، قيل: لم ينقطع المطر أربعين يوماً.

﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أي جعلنا الأرض كلها، كأنها عيونٌ منفجرة ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ أي ماء السماء، وماء الأرض، والإفراد لتحقيق أن التقاء الماءين، لم يكن بطريق المجاورة والتقارب، بل بطريق الاختلاط والاتحاد ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي على حالٍ قد قدَّرها الله من الأزل، وقضاها بإهلاك المكذبين غرقاً، ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين، فأهلكهم الله بمطلوبهم، بالماء الذي به حياة البشر.

﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ .

﴿ وَحَمَلْنَٰهُ ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ ﴾ أي أخشاب عريضة ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ ومسامير، جمع دسار، والدَّسْرُ: هو الدفع الشديد بقهر.

﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ بمرأى منا، أي محفوظة بحفظنا ﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ أي كُفر به، فعلنا ذلك جزاء لنوح عليه السلام، لأنه كان نعمة كفروها.

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ﴾ أي السفينة أو حادثة الطوفان ﴿ ءَايَةً ﴾ يعتبر بها من يقف على خبرها، وعن قتادة: أبقاها الله بأرض الجزيرة، وقيل: على الجودي، دهراً طويلاً ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي هل من معتبرٍ بتلك الآية الجديرة بالاعتبار؟ وأصله مذتكر، روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قرأت على رسول الله ﷺ ﴿فهل من مذَّكر﴾، فردَّها عليَّ يقول ﴿فَهلْ مِنْ مُدَّكر﴾[1].

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾؟ استفهام تعظيم ووعيد، أي كان على كيفية هائلة، لا يحيط بها الوصف، والنُّذُر: أي الإنذارات التي فيها تخويف.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ جملةٌ قسميَّةٌ، وردت في أواخر القصص الأربع، تقريراً لمضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ. حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ﴾؟ وتنبيهاً على أن كل قصة منها، مستقلة بإيجاب التذكر والتدبر، كافية في الازدجار، أي وبالله لقد سهلنا القرآن لِقومك، بأن أنزلناه على لغتهم، وشحناه بأنواع المواعظ والعبر، وصرَّفنا فيه من الوعيد والوعد، للتذكر والاتعاظ ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ إنكار ونفي للمتعظ على أبلغ وجه، أي فهل من معتبر ومتعظ بما فيه من العبر والمواعظ؟.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٦١٨.

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ أي هود عليه السلام ولم يتعرض لكيفية تكذيبهم له، دوماً للاختصار، ومسارعة إلى ما فيه بيان الازدجار، من العذاب الأليم، وقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ لتوجيه قلوب السامعين، نحو الإصغاء إلى ما يُلقى إليهم قبل ذكره لتهويله وتعظيمه، كأنه قيل: كذبت عاد فهل سمعتم كيف كان عذابي وإنذاري لهم؟.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ أي أرسلنا إليهم ريحاً باردة، شديدة الصوت، في يوم مشؤوم ﴿ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ أي استمرَّ شؤمه، أو مستمر عليهم إلى أن أهلكهم الله.

﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

﴿ تَنزِعُ النَّاسَ ﴾ أي تقلعهم عن أماكنهم، روي أنهم دخلوا الشِّعاب، والحفر، فنزعتهم الريحُ وصرعتهم موتىٰ ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ أي المنقطع عن مغارسه، وقوله تعالى:

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ ﴾ .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ تهويلٌ لهما وتعجيب من أمرهما، أي ألم يكن هائلاً فظيعاً؟.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي فهل من متعظ ومعتبر بزواجر

القرآن؟ وفائدة التكرار، أن يجدِّد عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين، ادكاراً واتعاظاً، وأن يستأنفوا تيقظاً وانتباهاً، إذا سمعوا الحثَّ على ذلك، وهذا حكمةُ التكرارِ في قوله تعالى: ﴿فبأيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ وقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ وكذلك تكرار القصص في أنفسها، لتكون العبرةُ حاضرة للقلوب، مصورة للأذهان، مذكورة غير منسيَّة في كل أوان.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾ أي الإنذارات والمواعظ التي سمعوها من صالح عليه السلام، أو بالرسل عليهم السلام، فإن تكذيب أحدهم تكذيب للكل، لاتفاقهم على أصول الشرائع.

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾ أي واحداً من جنسنا من آحاد الناس، لا من أشرافهم ﴿ إِنَّآ إِذًا ﴾ أي على تقدير اتباعنا له ﴿ لَّفِى ضَلَٰلٍ ﴾ عن الصواب ﴿ وَسُعُرٍ ﴾ أي جنون، فإن ذلك بمعزل عن مقتضى العقل.

﴿ ءَأُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ ءَأُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ ﴾ أي الوحي ﴿ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ وفينا من هو أحق منه بذلك؟ ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أي بطر متكبر، حمله بطره على التعظم علينا بما ادعاه، يقال: أشِرَ أَشَراً، أي بَطِر وتكبَّر.

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ حكاية لما قاله تعالى لصالح عليه السلام، وعداً له، ووعيداً لقومه، والمراد بالغد وقت نزول العذاب،

والسين لتقريب مضمون الجملة وتأكيده، أي سيعلمون البتة عن قريب، من الكذاب الأشر؟

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ ﴾ أي مخرجوها من الصخرة حسبما سألوا، امتحاناً لهم، فانتظرهم وتبصَّرْ ما يصنعون؟ ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴾ على أذيَّتهم فإن الله ناصرك عليهم.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ أي مقسوم لها يوم، ولهم يوم، و «بينهم» لتغليب العقلاء ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ أي يحضره صاحبه في نوبته.

﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ فَنَادَوْا۟ ﴾ نداء المستغيث ﴿ صَاحِبَهُمْ ﴾ هو «قدار بن سالف» كان أشجعهم ﴿ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم، غير مكترث له، فأحدث العقر بالناقة، والتعاطي: تناول الشيء بتكلف.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ هي صيحة جبريل ﴿ فَكَانُوا۟ ﴾ فصاروا ﴿ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ أي كالشجر اليابس، الذي يتخذه من يعمل الحظيرة، أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أي هل من معتبر ومتعظ؟

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ أي ريحاً تحصبهم، أي ترميهم بالحصباء وهي الحجارة ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ وهو آخر الليل وقت السحر.

﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ ﴾ أي إنعاماً منا عليه، فكان الإنجاء فضلاً منه تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة، وذلك الإنجاءُ كان فضلاً، كما أن ذلك الإهلاك كان عدلاً، والعضو الفاسد يُقطع.

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم ﴾ لوط عليه السلام ﴿ بَطْشَتَنَا ﴾ أخذتنا الشديدة بالعذاب ﴿ فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴾ فكذبوا بالإنذار والوعيد متشككين فيه.

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ ﴾ أي قصدوا الفجور بهم ﴿ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ أي أعمينا أعينهم فجعلناهم لا يبصرون، روي أنهم لما عالجوا باب لوط ليدخلوا، قالت الملائكة: خلِّهم يدخلوا إنَّا رُسُل ربك لن يصلوا إلينا،

فصفقهم جبريل عليه السلام صفقة، فتركهم يترددون، ولا يهتدون إلى الباب عمياناً ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فقلنا لهم على ألسنة الملائكة: ذوقوا عذابي وإنذاري الذي كنتم به تستهزئون.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ أول النهار ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ لا يفارقهم حتى يسلمهم إلى النار.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ حكاية لما قيل لهم، من جهة الله تعالى، تشديداً للعذاب.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي هل من متَّعظٍ ومعتبر؟.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ صدرت قصتهم بالتوكيد القسمي، لإبراز كمال الاعتناء بشأنها، لعظم ما فيها من الآيات وكثرتها، وهول ما لاقوه من العذاب، والاكتفاء بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك، أي وبالله لقد جاءتهم الإنذارات.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ وهي الآيات التسع ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي لا يُغالب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يعجزه شيء.

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ ﴾؟ إكفاركم يا معشر العرب خير من أولئك قوة، وشدة وعدة ومكانة؟ والمعنى: أنه أصابهم ما أصابهم، مع ظهور خيرتهم منكم، فيما ذكر، فهل تطمعون أن لا يصيبكم مثل ذلك وأنتم أسوأ حالاً منهم، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾؟ انتقال من التبكيت إلى توبيخ آخر، أي أم لكم براءة وأمن من العذاب في الكتب السماوية المنزَّلة ولذلك تصرون على ما أنتم عليه.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾؟ تبكيت آخر، أي بل أيقولون نحن جمع كبير، واثقون بكثرتنا وقوتنا، منتصرون على محمد وصحبه؟.

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ رد وإبطال لذلك أي سيهزم جمعهم البتة ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ أي الأدبار، والتوحيد لإرادة الجنس، وهو من دلائل النبوة، وقد وقع ذلك يوم بدر، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وهو في قبةٍ يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك، ووعدك، اللهم إن شئتَ لم تُعبد بعد اليوم أبداً، ووَثَب في الدرع وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[1].

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ٦١٩.

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ أي ليس هذا تمام عقوبتهم، بل الساعة موعد أصل عذابهم، وهذا من طلائعه، يعني: إن عذاب الدنيا ليس لإتمام المجازاة، فإتمامها بالعذاب الدائم ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ أي في أقصى غاية من الداهية والمرارة.

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ في هلاك ونيران مسعَّرة.

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾ أي يجرُّون ﴿ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ ويقال لهم ﴿ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ أي حر النار وألمها، و «سقر» عَلَمٌ لجهنم، واسم من أسمائها.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ أي ملتبساً بقدر معيَّن، اقتضته الحكمة التي عليها يدور أمر التكوين، أو مقدر مكتوب في اللوح قبل وقوعه. عن عبد الله بن عمر وابن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادر الخلائق كلها، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة»[1].

﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ ﴾ أي كلمة واحدة سريعة التكوين، وهي قوله

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٦٥٣ في القَدَر، والترمذي رقم ٢١٥٧ في القَدَر أيضاً.

تعالى: كن، فإذا أراد شيئاً قال له: «كن» فهنالك شيئان: الإرادة، والقول، والإرادة قَدَرٌ، والقول قضاء ﴿كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ في اليسر والسرعة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي أشباههم في الكفر من الأمم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متعظ يتعظ بما صنع بهم.

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ﴾ من الكفر والمعاصي مكتوب ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ في ديوان الحفظة.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ من الأعمال مسطورٌ فيها؛ نظيره قوله تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرةً وَلاَ كَبِيرةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾[1]؟

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أي في حدائق وبساتين وأنهار جارية.

﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضي ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي مقربين

(١) سورة الكهف، آية: ٤٩.

عنده، عند مليك لا يُقادر قدر ملكه وسلطانه، فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته، سبحانه ما أعظم شأنه، والعندية عندية منزلة وكرامة لا مسافة ومماسة، والله أعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة القمر»

* * *

مكية وآيها ست وسبعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ ﴾.

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴾ لما عدَّد في السورة السابقة، ما نزل بالأمم السالفة من النقم، عدَّد في هذه السورة الكريمة، ما أفاض على كافة الأنام، من فنون نعمه الدينية، وأنكر عليهم إثر كل فن منها إخلالهم بموجب الشكر، وبدأ بتعليم القرآن، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ لأنه أعظم النعم شأناً، وأرفعه مكانة، كيف لا وهو مدار السعادة الدينية، والدنيوية، جمع الله فيه العلوم والمعارف، وبيَّن فيه الهدى والضلال، وشرَّفه على سائر الكتب السماوية، فهو أفضلها وإمامُها، وإسناد تعليمه إلى اسم الرحمن، للإيذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة، وقد اقتصر على ذكره تنبيهاً على أصالته، وجلالة قدره.

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ ﴾.

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ والجمل الثلاث أخبار مترادفة للرحمن وإخلاء الآخرين عن العاطف، لورودها على منهاج التعديد، كما

تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزَّك بعد ذل، كثَّرك بعد قلة، فما تنكر من إحسانه؟ والبيانُ هو التعبير عما في الضمير، وليس المراد بتعليمه مجرد تمكين الإنسان من بيان نفسه، بل منه ومن فهم بيان غيره أيضاً، إذ هو الذي يدور عليه تعليم القرآن.

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أي يجريان بحساب مقدَّر، في بروجها ومنازلها، بحيث تنتظم بذلك أمور الكائنات السفلية، وتختلف الفصول والأوقات، وتعلم السنون والحساب.

﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱلنَّجْمُ ﴾ أي النبات الذي ينجم، أي يطلع من الأرض ولا ساق له، وقيل: نجوم السماء، والأول أظهر ﴿ وَٱلشَّجَرُ ﴾ الذي له ساق ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾ أي ينقادان له تعالى فيما يريد بها طبعاً، انقياد الساجدين من المكلفين طوعاً.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا ﴾ أي خلقها مرفوعة، محلاً ورتبة، حيث جعلها منشأ أحكامه، ومنزل أوامره، ومحل ملائكته، فنبَّه بذلك على كبرياء شأنه، وعظم ملكه وسلطانه ﴿ وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ أي شرع العدل، وأمر به بأن يُوفَّىٰ لكلِّ ذي حق حقه، والمراد به الميزان الذي يعرف به مقادير الأشياء، من وزن ومكيال ونحوهما، فالمعنى: خلقه موضوعاً على الأرض، حيث علق به أحكام عباده، من التسوية والتعديل، في أخذهم وإعطائهم، فالميزان نعمة، وعدمُ ظهور نعمته، لكثرته وسهولة الوصول إليه، كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلهما إلا عند فقدهما.

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ أي لئلا تطغوا فيه، ولا تجاوزوا الإنصاف وإنما قال: ﴿في الميزان﴾ ولم يقل في الوزن، ليشمل الأخذ والإعطاء، ولولا التساوي في الحقوق لأوقع الشيطان بين الناس البغضاء؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي قوّموا وزنكم بالعدل والإنصاف ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أي لا تنقصوه، والميزان ذكره الله تعالى ثلاث مرات، كل مرة بمعنى آخر، فالأول هو الآلة، والثاني بمعنى المصدر، أي لا تطغوا في الوزن، والثالث للمفعول، أي لا تنقصوا الموزون؛ كرَّر لفظ الميزان، تشديداً للتسوية به، وتأكيداً للأمر باستعماله عدلاً.

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ أي خفضها وبسطها ﴿ لِلْأَنَامِ ﴾ أي للخلق ليستقروا عليها، وينتفعوا بما فيها من خيرات، بالزراعة، والبناء وإخراج المعادن.

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أي فيها ضروب كثيرة مما يتفكه به، من النعم التي لا تحصى ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ هي أوعية الثمر جمع كِمّ بكسر الكاف والكِمُّ وعاءُ الطلع، وغطاء النور، والجمع أكمام، ذكر تعالى النخل، لأنها أعظمها وأكثرها نفعاً، فهو غذاء كامل.

﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْحَبُّ ﴾ هو ما يُتغذَّى به، كالحنطة، والشعير ﴿ ذُو ٱلْعَصْفِ ﴾ هو ورق الزرع وقيل التبن ﴿ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ هو الريحانُ المعروف، ذو الرائحة الطيبة، والمراد به كل مشموم طيب الريح، كالورد، والياسمين، والفل، سمي ريحاناً لرائحته الطيبة الزكية [1].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى: ﴿للأنام﴾ وسينطق به قولهُ تعالى: ﴿أيها الثقلان﴾ والفاء لترتيب الإنكار، على ما فُصِّل من فنون النعماء، الموجبة للإيمان والشكر، والتعرض لعنوان الربوبية، المنبئة عن المالكية، والتربية لتأكيد النكير، ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى كفرهم بها، إما بإنكار كونه نعمة في نفسه، كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية، وإما بإنكار كونه من الله تعالى، مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه، كالنعم الدنيوية، أي فإذا كان الأمر كما فُصِّل، فبأي فردٍ من أفراد آلاء مالككما ومربيكما بتلك الآلاء تكذبان، مع أن كلاً منها ناطق بالحق، شاهدٌ بالصدق؟ كُرّرت هذه الآية في هذه السورة، في إحدى وثلاثين موضعاً، تقريراً للنعمة وتنبيهاً على

---

(١) ذكر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنواع النِّعم التي خلقها لعباده، فذكر الفاكهة أولاً، ونكَّر لفظها ﴿فيها فاكهة﴾ لأن الانتفاع بها نفسها كالتفاح، والرمان، والعنب، والكمثرى إلخ، ثم ثنَّى بالنخل فذكر الأصل ولم يذكر ثمرها وهو التمر ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ لكثرة الانتفاع بها من ليف، وسَعَف، وجريد، ثم ذكر الحب الذي هو قوام عيش الإنسان، من بُرّ، وشعير، وكل ما له سنبل، وبدأ بالفاكهة وختم بالمشموم، ليجمع بين اللذة بالغذاء، واللذة بالروائح الطيبة، فسبحان من أنزل القرآن بأفصح بيان!!.

وجوب شكر المنعم، والاعتراف له بالفضل والإحسان، ثم فصَّل هذه النعم الجليلة، وبدأ بخلق الإنسان؛ فقال:

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ ﴾ الصلصالُ: الطينُ اليابسُ، الذي له صلصلة، وهو الصوت منه إذا نُقر ﴿ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ أي الطين المطبوخ بالنار، وهو الخَزَفُ، وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام في أطوار وأدوار، من تراب، ثم جعله طيناً، ثم حَمَأً مسنُوناً، ثم صلصالاً، ولا اختلاف بين الآيات، لاتفاقهن معنى، فهي مراحل وأطوار.

﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ ﴾ أي الجنَّ، أو أبا الجن إبليس ﴿ مِن مَّارِجٍ ﴾ من لهب صافٍ ﴿ مِّن نَّارٍ ﴾ بيان للمارج، فإنه في الأصل للمضطرب، من مَرَج إذا اضطرب.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله ممَّا أفاض عليكما من سوابغ النعم تكذبان يا معشر الجن والإنس؟.

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ أي الذي فعل ما ذكر من الأفاعيل البديعة، ربُّ مشرقَيْ الصيفِ، والشتاءِ، ومغربيهما.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؟ مما في ذلك من فوائد لا تحصى، من اعتدال الهواء، واختلاف الفصول، وحدوث ما يناسب كل فصل في وقته، وغير ذلك.

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾ أي أرسلهما من مرجت الدابة إذا أرسلتها، والمعنى أرسل البحر الملح، والبحر العذب ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾ أي يتجاوران.

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾ أي حاجز من قدرة الله تعالى، أو من الأرض، يعني أنَّ الماءين، من شأنهما أن يكون مكانهما واحداً، ثم إنهما بقيا في مكانين متميزين، فذلك برهان القدرة، على أن الماءين إذا تلاقيا لا يمتزجان في الحال، بل يبقيان زماناً، كالماء المسخَّن إذا غمس في ماءٍ بارد، إن لم يمكث فيه زماناً لا يمتزج بالبارد، لكن إذا زاد مجاورتها فلا بد من الامتزاج ﴿ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ أي لا يبغي أحدهما على الآخر، بالممازجة وإبطال الخاصية.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ليس منهما شيء يقبل التكذيب.

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ اللؤلؤُ: الدُّرُّ، والمرجانُ: الخرزُ الأحمر، لمَّا التقيا وصارا كالشيء الواحد ساغَ أن يقال يخرجان منهما وظاهر كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من بعض الناس، ممن لا يوثق بقوله

أن الغواصين ما أخرجوه إلا من المالح، والصواب أنه يخرج من بعضها كبعض أنهار الهند ثبت ذلك قطعاً.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ ﴾ أي السفن الجارية المرفوعات الشراع، أو المصنوعات، اللاتي ينشئن الأمواج بجريهن ﴿ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ كالجبال الشاهقة، جمع عَلَم وهو الجبلُ الطويل.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؟ من خلق مواد السفن، والإرشاد إلى أخذها، وكيفية تركيبها، وإجرائها في البحر، بأسباب لا يقدر على خلقها إلا الله سبحانه وتعالى[1].

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ أي على الأرض من الحيوانات، أو من الثقلين هالكٌ لا محالة.

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أي ذاته عزَّ وجلَّ، والوجه يستعمل في العرف

---

(١) في الآية إرشاد وتنبيه إلى أن الفلك ـ أي السفن ـ في البحر، لا يملك أمرها في الحقيقة أحد، وكل الخلق مؤمنهم وكافرهم يعترف بالعجز والضعف، وينتظر رحمة الله عز وجل، فأحوالهم وأرواحهم في قبضة قدرة الله، وقد كانوا يقولون: لك الفُلْكُ ولك المُلْكُ، كما قال سبحانه عنهم: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ ثم هم بعد ذلك ينسون نعمة الله!!.

لحقيقة الإنسان ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي ذو الاستغناء المطلق، والفضل التام، وهذه من عظائم صفته تعالى، كما رُوي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام»[1] ومعنى ألظُّوا، أي الزموا وأكثروا من هذا الدعاء، وفي وصفه سبحانه بعد ذكر فناء الخلق، وبقائه تعالى، إيذان بأنه يفيض عليهم بعد فنائهم أيضاً آثار لطفه وكرمه.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ؟ فإحياؤهم بالحياة الأبدية، والإثابة بالنعيم السرمدي، أجلُّ النعم، وأعظم الآلاء، قال يحيى بن معاذ: حبَّذا الموتُ، فهو الذي يقرِّب الحبيب إلى الحبيب.

﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ قاطبة ما يحتاجون إليه، في ذاتهم، وموجوداتهم وسائر أحوالهم سؤالاً مستمراً، بلسان المقال، أو بلسان الحال، فإنهم كافة لو انقطع ما بينهم، وبين العناية الإلٰهية من العلاقة، لم يشمُّوا رائحة الوجود أصلاً، فهم في كل آن مستمرون على الاستدعاء والسؤال، والمراد من السؤال ما يدلُّ على الحاجة، نطقاً كان أو غيره ﴿ كُلَّ يَوْمٍ ﴾ أي في كل وقت من الأوقات ﴿ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ من الشؤون التي من جملتها إعطاء ما سألوا، فإنه تعالى لا يزال ينشىء أشخاصاً ويفني آخرين، ويأتي بأحوال ويذهب بأحوال حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحِكَم

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات رقم ٣٥٢٣. والحاكم في المستدرك ١/٤٩٨ وقال الحاكم: حديث صحيح الإسناد.

والمصالح، روي أنه ﷺ تلاها فقيل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً، ويَضَع آخرين[1].

وفيه ردٌّ على اليهود حيث يقولون: إن الله لا يقضي يوم السبت.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مع مشاهدتكم لما ذُكر من إحسانه.

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾.

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ أي سنتجرد لحسابكم وجزائكم، وذلك يوم القيامة، عند انتهاء شؤون الخلق، فعبَّر عنه بالفراغ لهم بطريق التمثيل، وقيل: هو مستعار من قول المتهدد لصاحبه: سأفرغ لك، أي سأتجرد للإيقاع بك، والمراد التوفر على النكاية فيه، والانتقام منه ﴿ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ هما الإنس والجان لثقلهما على الأرض.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؟ التي من جملتها التنبيه على ما سيلقون يوم القيامة للتحذير عما يؤدي إلى سوء الحساب والعذاب.

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ هما الثقلان، خوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير، ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقة، فخوطبوا بما

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٢٩٣.

ينبىء عن ذلك، لبيان أن قدرتهم لا تفي بما كُلِّفوه ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أي إن قدرتم ﴿أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي أن تهربوا من قضائي، وتخرجوا من ملكوتي، ومن أقطار السماوات والأرض ﴿فَٱنفُذُواْ﴾ منها، وخلِّصوا أنفسكم من عقابي ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ أي لا تقدرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي بقوة وقهر، وأنتم عن ذلك بمعزل بعيد، وهذا الخطاب الظاهر أنه في الآخرة، روي أن الملائكة تحيط بجميع الخلائق، فإذا رآهم الإنس والجن هربوا، فلا يأتون وجهاً إلا وجدوا الملائكة أحاطت به.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تقدَّم تفسيره.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ هو لهب خالص، وقيل: المختلط بالدخان ﴿مِّن نَّارٍ﴾ والتنكير للتفخيم ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي دخان، وقيل صُفْرٌ مذاب يصبُّ على رؤوسهم، ويحتمل أن يكون للاختصاص، فالنار للإنس، والنحاس للجن ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي لا تمتنعان، ولا يكون لهم ناصر منه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ؟ فإن بيان العاقبة لطف ونعمة، والانتقام من الكفار من عدد الآلاء.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي انصدعتْ، وانفكَّ بعضُها من بعض لقيام الساعة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ فصارت كلون الورد الأحمر ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ أي كدهن

الزيت، كما قال تعالى: ﴿كالمهل﴾ وهو عكر الزيت، وجواب إذا محذوف، أي يكون من الأحوال والأهوال ما لا يحيط به دائرة المقال.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ؟ مع عظم شأنها.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم تنشق السماء ﴿ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ لأنهم يُعرفون بسيماهم، وذلك حينما يخرجون من قبورهم، ويحشرون إلى الموقف على اختلاف مراتبهم، وضمير ذنبه للإنس لتقدمه رتبة، أي لا يُسأل أحد من المجرمين عن ذنبه، لأنهم يُعرفون بسيماهم، فلا يحتاج إلى سؤالهم.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؟ مع كثرة منافعها، فإن الإخبار بما ذكر مما يزجرهم عن الشر، المؤدي إليه.

﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ أي يُعرفون بسواد الوجوه، وزرقة العيون، وبما يعلوهم من الكآبة والحزن ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ أي يجمع بين نواصيهم وأقدامهم، في سلسلة من وراء ظهورهم، وقيل: تسحبهم الملائكة؛ تارة تأخذ بالأقدام، وتارة بالنواصي.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي يقال لهم ذلك بطريق التوبيخ ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي هذه النار التي كان يكذب بها الأشقياء المجرمون.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ أي بين النار التي يحترقون بها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماء حار ﴿ءَانٍ﴾ بلغ النهاية في الحرارة، يُصبُّ عليهم، ويُسقون منه، وقيل: إذا استغاثوا من النار، أغيثوا بالحميم.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقد أشير إلى كون هذه الأمور من الآلاء.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ شروع في تعداد الآلاء الفائضة عليهم في الآخرة، أي ولمن خاف قيامه بين يدي ربه جنتان، واعلم أن ما عُدِّد فيما بين هذه الآية، وبين خاتمة السورة الكريمة، من فنون الكرامات، كما هي في أنفسها آلاء جليلة، واصلة إليهم في الآخرة، كذلك حكاياتها الواصلة إليهم في الدنيا آلاء عظيمة، لكونها داعية لهم إلى السعي في تحصيل ما يؤدي إلى نيلها، من الإيمان والطاعة، وأن ما فُصِّل من فاتحة السورة إلى قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾، وبين هذه الآية، من الأحوال الهائلة التي ستقع في الآخرة؛ فليست هي من قبيل الآلاء، وإنما الآلاء حكاياتُها، الموجبة للانزجار عما يؤدي إلى الابتلاء بها، من الكفر والمعاصي، وقوله تعالى: ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب، يوم يقوم الناس لربِّ العباد، وإضافته إلى الرب للتفخيم، وقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ أي جنة للخائف الإنسي، وجنة للخائف الجني، فإن الخطاب للفريقين، أو

لكل واحد جنتان: جنة لفعل الطاعات، وأخرى لترك المعاصي، أو جنة يثاب بها، وأخرى يُتفضل عليه بها.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ صفة لـ«جنتان» وما بينهما اعتراض، والأفنان جمع فَنَن، أي ذواتا أغصان، وتخصيصها بالذكر لأنها التي تورق وتثمر، وتمد الظل.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأي نعمة من نعم الله الجليلة تكذبان يا معشر الإنس والجن؟.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ صفة أخرى لجنتان، أي في كل واحدة منهما عينٌ تجري، كيف يشاء صاحبها، وعن ابن عباس والحسن: تجريان بالماء الزلال، إحداهما التسنيمُ، والأخرى السلسبيلُ.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي فيهما من جميع أنواع الفواكه والثمار صنفان: غريب، ومعروف.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ﴾ أي مضطجعين في جنان الخلد،

والاتكاءِ من الهيئات الدالة على صحة الجسم، وفراغ القلب، لأن العليل يضطجع، أو يستلقي أو يستند على حسب ما قَدَر عليه، وأما الاتكاء فهو علامة الرفاهية والنعيم ﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي فرش وثيرة بطائنها من ديباج، وهو الحرير السميك، المزيَّن باللؤلؤ، وهذا يدل على نهاية الرفاهية، ومتى كانت بطائنها كذلك، فما ظنك بظهائرها؟ ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي ما يجتنى من أشجارها من الثمار، قريب يناله القائم، والقاعد، والمضطجع.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ﴾ أي في الجُنان والقصور ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي نساء يقصرن أبصارهنَّ على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، إنه تعالى لم يذكر النساء، إلا بأوصاف، تارة حور عين، وتارة عرباً أتراباً، وتارة قاصرات الطرف، إشارة إلى تخدّرهنَّ، وإعظاماً لهنَّ في أعين الرجال ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لم يمسَّ الإنسيات أحد من الإنس، ولا الجنّيات أحد من الجن قبل أزواجهن، وفيه دليل على أن الجن يُطمثون، والطمثُ: الجماعُ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ صفة لقاصرات الطرف، أي مشبهات بالياقوت، في حمرة الوجنة، والمرجان، أي صغار الدُّرِّ في بياض البَشَرة وصفائها، فإن صغار الدُّرِّ أنصع بياضاً من كباره، ولا يبعد أن يقال: هو مؤكدات لما مضى، لأنهن لما كنَّ ممتنعات عن الاجتماع بالإنس والجن، فهن كالياقوت في معدنه، والمرجان في صدفه.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾؟ أي ما جزاء الإحسان في العمل، إلا الإحسان في الثواب.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ أي ومن دون تلك الجنتين، الموعودتين للخائفين المقربين، جنتان أخريان، لمن دونهم من أصحاب اليمين، ولا شكَّ أن مقام السابقين المقربين أعظم وأرفع.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ صفة لـ «جنتان» أي خضراوان تضربان إلى السواد، من شدة الخضرة، وفيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النباتات والرياحين.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي فوارتان بالماء، والنَّضْخُ أكثر من النضح وهو الرش.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ عطف الأخيران لفضلهما، فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء، وللرمان فاكهة ودواء.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ﴾ في الجنان ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ فاضلات الأخلاق، وحسان الخَلْق والخُلُق.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ أي مخدَّرات، يقال: امرأة مقصورة الطرف، قيل: إن الخيمة من خيامهن درة مجوَّفة.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لم يغشهنَّ ولم يجامعهن أحد قبل أزواجهن.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ أي مستندين على وسائد خضر من وسائد الجنة، والوسادة هي المخدَّة ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ العبقري منسوب إلى العبقر، وهي الطنافس الثخان، جمع عبقرية، أي طنفسة سميكة مزينة بأنواع النقوش، قال الخليل: كلُّ شيء نفيس يسمى عند العرب عبقرياً، ومنه قول النبي ﷺ في عمر: «فلم أَرَ عبقرياً يَفْري فَرْيه»[1].

---

(١) طرف من حديث رواه البخاري ١١/ ٣٦٥ ولفظه «بينما أنا نائم رأيتني على قليب ـ أي بئر ـ عليها دلوٌ، فنزعتُ منها ما شاء الله، فأتاني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليريحني، فنزع ذنوبين ـ أي دَلْوين ـ وفي نزعه ضعف، واللهُ يغفر له، فجاء ابن الخطاب فأخذها منه، فلم أر عبقرياً من الناس، يفري فريه، حتى رَوِيَ الناسُ، =

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى، فيه تقرير لما ذكر في السورة الكريمة، من آلائه الفائضة على الأنام، أي تعالى اسمه الجليل، وارتفع عما لا يليق بشأنه من العجز والضعف وتضييع أجر العاملين ﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ أي ذو العظمة والكبرياء، والفضل والإكرام لأوليائه، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

والصلاة والسلام على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الرحمن»

* * *

= وضَربوا بِعَطَنٍ» اهـ أي حتى استقى الناس، وأروَوْا إبلهم، والحديث إشارة إلى الفتوحات الإسلامية التي كانت في زمن عمر، وإلى مدة خلافتهما، فقد قصرت مدة خلافة أبي بكر، وطالت مدة خلافة عمر، حتى تيسرت له الفتوح، وأفاء الله عليه الغنائم، وكنوز كسرى وقيصر.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

مكية وهي ست وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١﴾.

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي إذا قامت القيامةُ، وذلك عند النفخة الثانية، والتعبيرُ عنها بالواقعة، للإيذان بتحقق وقوعها لا محالة، كأنها واقعة في نفسها، مع قطع النظر عن الوقوع، كأنه قيل حدثت الحادثة، والواقعةُ اسم للقيامة، وانتصاب إذا بمضمر ينبىء عن الهول، كأنه قيل: إذا وقعت الواقعة، يكون من الأهوال، ما لا يفي به المقال.

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾.

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي لا يكون عند وقوعها نفسٌ تكذب على الله، ولا تكذّب في نفيها كما تكذب اليوم.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي هي خافضة لأقوام، رافعةٌ لآخرين، وهو تقرير لعظمتها، وتهويل لأمرها، فإن الوقائع العظام شأنها كذلك.

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أي زُلزلت زلزالاً شديداً، بحيث ينهدم ما فوقها من بناء، وجبل، ويندكُّ كل صرح وعمران.

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ أي فُتِّتْ حتى صارت مثل السويق الملتوت، أو سيقت وسيِّرت، من بسَّ الغنم إذا ساقها، كقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فكَانَتْ سَرَاباً﴾.

﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ فَكَانَتْ ﴾ أي فصارت بسبب ذلك ﴿ هَبَآءً ﴾ أي غباراً ﴿ مُّنۢبَثًّا ﴾ أي منتشراً، متطايراً في الجوّ.

﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَكُنتُمْ ﴾ خطاب لجميع الخلائق، السابقين واللاحقين ﴿ أَزْوَٰجًا ﴾ أي أصنافاً ﴿ ثَلَٰثَةً ﴾ فكل صنف يكون مع صنف آخر في الوجود أو في الذكر فهو زوج، صنفان في الجنة، وصنف في النار، كما وضحته الآية الكريمة.

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ وهم الذين يؤتون صحائف أعمالهم بالأيمان ﴿ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ تعجيب من حالهم في السعادة، وتعظيمٌ لشأنهم، كأنه قيل: ما هم؟ وأي شيء هم، في حالهم وصفتهم؟.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾؟! والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين، في الفخامة والفظاعة، كأنه قيل: فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال، وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال، سُمُّوا أصحاب اليمين، لكون أيمانهم تستنير بنور من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَسعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ ولأنهم يُعطون كتبهم بأيمانهم.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ هم القسم الثالث من الأزواج الثلاثة، ولعل تأخير ذكرهم، مع كونهم أسبق الأقسام، وأقدمهم في الفضل، ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم، أي والسابقون إلى طاعة الله، هم السابقون إلى رحمته، وقيل: الذين سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى السابقين ﴿ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ الذين قربت إلى العرش درجتهم، فهم في ظل العرش وجواره.

﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي كائنين في جنات نعيم، يستمتعون بما تشتهيه الأنفس.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي هم جملة من الأولين، وهم الأمم السالفة، من

لدن آدم عليه السلام، إلى نبينا صلواتُ الله عليهم أجمعين، والثُلَّة: الأمة من الناس الكثيرة.

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ أي من هذه الأمة، وقد روي مرفوعاً أن الأولين والآخرين ههنا، متقدمو هذه الأمة ومتأخروهم، وهذا ظاهر لأن الخطاب لا يتعلق إلا بالموجودين.

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ الموضونة: المنسوجةُ بالذهب، المشبَّكة بالدر والياقوت، القوية اللحمة والسُّدَى.

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، وهو وصفٌ لهم بحسن العِشرة، ومنتهى الأخلاق والآداب، أي إنَّ أحداً لا يستدبر أحداً.

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي يدور حولهم للخدمة ﴿ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي غلمان، مبقون أبداً على هيئة الولدان وطراوتهم. قيل: هم أولاد أهل الدنيا، وقيل: أولاد الكفار خدَّام أهل الجنة، والصحيح أنهم ولدان خُلقوا في الجنة، لخدمة أهل الجنة، كالحور العين، والعربُ تسمي الغلام وليداً ما لم يحتلم، والأمة وليدة.

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ سميت إبريق لبريق لونها، وقيل: لأنها يُرى باطنها كما يرى ظاهرها ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي خمر جارية من العيون.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي بسببها، وحقيقته لا يصدر صداعهم عنها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي لا يسكرون، من أنزف الشارب إذا ذهب عقله.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ يختارونه ويأخذون خيره وأفضله.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي يتمنون ويحبُّون، كما ورد في الحديث «إنك لتنظر إلى الطير فتشتهيه، فيخرُّ بين يديك مشوياً»[1].

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ أي ويؤتون حوراً جميلات، واسعات العيون.

﴿كَأَمْثَٰلِ اللُّؤْلُوِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿كَأَمْثَٰلِ اللُّؤْلُوِ الْمَكْنُونِ﴾ في الصفاء والنقاء الذي لم تُغيِّر لونَه الشمسُ والهواء.

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) أخرجه البيهقي، وانظر تفسير الحافظ ابن كثير ٤/٣٠٨.

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي يفعل بهم ذلك كله، جزاءً بأعمالهم، أما الزيادة فلا يدركها أحد.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي باطلاً ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي لا يأتون ما هو سبب التأثيم، والمعنى: لا يسمعون في الجنة باطلاً من القول، ولا فاحشاً من الكلام، فحياتهم كلُّها أُنسٌ وسرور، ومُتعةٌ ولذة.

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي إلاَّ أن يقولوا ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾أي أنهم يفشون السلام بينهم.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾؟! استفهام للتعظيم لحالهم، وكرامتهم في الجنة.

﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ أي هم في سدر غير ذي شوك، لا كسدر الدنيا وهو شجر النبق، كأنه خُضد شوكُه أي قطع.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطلحُ: شجر الموز، وله أزهار كثيرة، طيبة الرائحة فإن قيل: ما الحكمةُ، وأية نعمة تكون في كونهم في سدر، وهو من

أشجار البوادي وله شوك[1] ؟ أجيب: بأن الجنة تمثل بما كان عند العرب عزيزاً، وله نفع لهم، أو لأنعامهم، والإشارة إلى جميع ما بينهما كما يقال: فلان مَلَك الشرق والغرب، أي وما بينهما، والأشجار أوراقها على أقسام كثيرة، وورق السِّدر في غاية الصغر، وورق الطلح في غاية الكِبر، ففي الآية وقعت الإشارة إلى جميع الأشجار، نظراً إلى الأوراق، كما ذُكر النخيل والأعناب لشهرتهما عند العرب.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ممتد منبسط لا يتقلص، ولا يتفاوت الظلُّ، ولا ينقبضُ، لأنه ليس ظل الأشجار، بل ظلٌّ دائم يخلقه الله تعالى.

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ يسكب لهم أينما شاؤوا، وكيفما أرادوا بلا تعب، أو مصبوب سائل، يجري على الأرض، كأنه شبَّه ومثَّل حال السابقين في التنعم بأكمل ما يتصور لأهل المدن، ومثَّل حال أهل اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البوادي، إيذاناً بالتفاوت بين الحالين.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ بحسب الأنواع والأجناس.

---

(١) روى البيهقي والحاكم أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، إن الله تعالى ذكر في الجنة شجرةً تؤذي صاحبها؟! فقال: وما هي؟ قال: السِّدرُ، فإن له شوكاً!! فقال رسول الله ﷺ: أليس الله يقول ﴿وسدرٍ مخضود﴾؟ خَضَد الله شوكه ـ أي نزعه وقطعه ـ فجعل مكان كل شوكةٍ ثمرةً، وإنَّ الثمرة من ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام، ما فيها لون يشبه الآخر»!!.

﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ ﴾ في وقتٍ من الأوقات، كفواكه الدنيا، بل دائمة مستمرة دون انقطاع ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ عن متناوليها بوجه من الوجوه، لقربها منهم.

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ رفيعة القدر، أو مرفوعة على الأسرة، وقيل: الفرشُ: النساء، حيث يكنى بالفراش عن المرأة، وارتفاعها كونهنَّ على الأرائك، قال الله تعالى: ﴿هُمْ وأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَىٰ الأَرَائِكِ مُتَّكِئُون﴾[1] ويدل عليه قوله تعالى بعده.

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ أي خلقناهنَّ خلقاً جديداً.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ أي كلما أتاهن أزواجهن، وجدوهن أبكاراً.

﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عَرُوب، وهي المحبَّبة إلى زوجها، الحسنةُ التبعُّل ﴿ أَتْرَابًا ﴾ مستويات في السنِّ، بنات ثلاث وثلاثين سنة، وكذا أزواجهن، لأنه لا هَرَمَ، ولا شيخوخة في الجنة.

---

(١) سورة يسَ، آية: ٥٦.

﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي جعلناهن نساءً لأصحاب اليمين.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ أي هم أمة من الأولين، وأمة من الآخرين، هذا في أصحاب اليمين.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ ﴾ .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ ؟! الشمال والمشأمة واحد، وهم الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم، والاستفهام للتهويل والتفظيع، أي وأصحاب الجحيم هل تدري ما هو حالهم.

﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ أي حرِّ نارٍ ينفذ في المسامِّ، والسموم ريح حارة تهب بالنهار فتمرض، أو تقتل.

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾ أي من دخان أسود، وأصله من الحم، وهو الفحم هواؤهم الذي يهب عليهم سموم، وماؤهم الذي يشربونه حميم.

﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

﴿ لَّا بَارِدٍ ﴾ كسائر الظلال ﴿ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ فيه خير ما، نفيٌ لصفتي الظل عنه، يعني أنه ظل حار، وضار، لا نافع، ثم بيَّن تعالى بِمَ استحقوا ذلك العذاب، فقال:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ ﴾ في الدنيا ﴿ مُتْرَفِينَ ﴾ أي منعَّمين ومنهمكين في الشهوات، فلا جَرَم عُذّبوا بنقائضها.

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ أي الذنب العظيم، وهو الشرك بالله، لأنه نقض عهد الميثاق.

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ ﴾ لغاية عتوهم ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾؟ أي هل سنُخلق مرة أخرى؟ وهو المرجع للإنكار، وتقييده بالوصف المذكور، وهو تحول أجسادهم إلى التراب والعظام النخرة، لتقوية الإنكار للبعث، بتوجيهه إليه في حالةٍ منافية له بالكلية، فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت، وإن كان البدن على حاله.

﴿ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾؟ يعنون أن بعث آبائهم الذين بَلُوا، أبعدُ من الوقوع.

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ رداً لإنكارهم، وتحقيقاً للحق ﴿ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴾ من الأمم الذين من جملتهم أنتم وآباؤكم.

﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بعد البعث ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ هو ما وقَّت الله به الدنيا، وهو يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ الخطاب للكفرة ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ أي الضالون عن الهدى، المكذبون بالبعث والجزاء.

﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿لَءَاكِلُونَ﴾ بعد دخول جهنم ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ مِنْ الأولى للابتداء، والثانية للبيان، أي مبتدئون الأكل من شجر هو الزقوم.

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ أي بطونكم من شدة الجوع.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ عقيب ذلك ﴿مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي الماء الحار الذي اشتدت حرارته.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ أي لا يكون شربكم شرباً معتاداً، بل يكون مثل شرب الهيم، وهي الإبل التي بها الهُيَام، وهو داءٌ يصيبها فتشرب ولا تَرْوىٰ، جمع أهيم، والمعنى: أنه يُسلَّط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم، فإذا ملؤوا منه بطونهم، سُلِّط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم، فيشربون شرب الهيم.

﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أي هذا الذي ذُكِرَ من العذاب هو ضيافتُهم، فإذا كان نزلهم ذلك، فما ظنك بما لهم، بعدما استقرَّ لهم القرار في النار؟ وفيه من التهكم بهم ما لا يخفى، فإن النزل معناه الضيافة، وهل الحميم والزقوم ضيافة فيها تكريم؟ فإن النزل للكرامة، وهذا العذاب للإهانة.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أي نحن الذين خلقناكم أيها الناس، وأوجدناكم من العدم، فهلاَّ تصدّقون بالبعث والنشور؟.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴾؟ أي ما تقذفون في الأرحام من النُّطف؟.

﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

﴿ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ ﴾؟ أي هل أنتم الذين تخلقونه وتصورونه بشراً سويّاً؟. ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾؟ له من غير دخل شيء فيه، فَلِمَ لا تصدقون على أنه يعيدكم؟.

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾ أي قسمناه عليكم ووقَّتنا موت كل أحد بوقت معين، حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنيَّةُ على الحِكَم البالغة ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أي لا يسبقنا أحد فيهرب من الموت، أو يغيّر وقته، وإنَّا قادرون.

﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ .

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي أن نُذهبكم، ونأتي مكانكم بغيركم، في أسرع حين من الخلق ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الخلق والأطوار، يعني إنا نقدر على الأمرين على الخلق ممَّا يماثلكم وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم؟.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هي خلقهم من نطفة ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أفلا تتذكرون أنَّ من قَدَر عليها، قدر على النشأة الأخرى؟ فإنه أقل صنعاً لحصول المراد!! وفيه دليل على صحة القياس.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ ذكر تعالى بعد دليل الخلق، دليل الرزق ﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أي تبذرون حبَّه.

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ أي تنبتونه ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المنبتون.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ هشيماً، منكسراً، متفتتاً، بعد ما أنبتناه ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبون من سوء حاله، وتندمون على تعبكم فيه، والتفكُّهُ: التنعم بصنوف الفاكهة، وقد استعير للتفكه بالحديث، فإن قال معاند: نحن نحرث وهو بنفسه يصير زرعاً، لا بفعلنا، ولا بفعل غيرنا، نقول: لو سُلّم هذا الباطل، فما تقول في سلامته عن الآفات التي تصيبه قبل ظهور الحبِّ؟ أَوَ تدفعونها عنه، أو هذا الزرع يدفع عن نفسه لو أراد الله تَلَفَه وهلاكه؟

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أي قائلين إنَّا لملزمون غرامة ما أنفقنا.

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أي حُرمنا رزقنا، غرمنا ثمن الحب، وحُرمنا من الرزق، فلا حظَّ ولا نصيب لنا فيه.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾؟ عذباً فراتاً، وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه، لأن الشرب أهم المقاصد المنوط بها.

﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾؟ من السحاب، جمع مُزنة وهي السحابة الممطرة ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾؟ له بقدرتنا.

﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ أي ملحاً زعافاً لا يمكن شربه ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أي فهلاَّ تشكرون ربكم على فضله وإنعامه؟.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ أي تقدحونها وتستخرجونها من الزناد، والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر فتخرج منه النار.

﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ لها بقدرتنا؟ والتعبير عن خلقها بالإنشاء، المنبىء عن بديع الصنع، المعرب عن كمال القدرة والحكمة، لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الشجر، التي لا تخلو من النار، حتى قيل: في كل شجر نارٌ، واستمجد المرخُ والعُفار.

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾ أي تذكيراً لنار جهنم، حيث علقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ويذكروا ما أوعدوا به من نار جهنم، وفي الحديث الشريف «ناركم هذه التي توقدون، جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم»[1] وقيل: المعنى: جعلناها تبصرةً لأمر البعث، فإنه ليس بأبدع من إخراج النار من الشيء الرطب ﴿ وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ أي ومنفعة للذين ينزلون القواء، وهو القفر، وتخصيص المسافرين بذلك، لأنهم أحوج إليها، فإن المقيمين ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح.

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ الفاء في ﴿فَسَبِّحْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما عدّد من بدائع صنعه تعالى، الموجبة لتسبيحه، عما يقول الجاحدون بوحدانيته، الكافرون بنعمته مع عظمها وكثرتها، وتعجيباً من أمرهم في غمط تلك النعم الباهرة، مع جلالة قدرها، أي فأحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى العظيم، قل: سبحان الله العظيم، سبحان من خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخّرها لنا بحكمته!!.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٦/٢٣٨ باب صفة النار، ومسلم رقم ٢٨٤٣ باب في شدة حر نار جهنم.

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ ﴾ أي فأقسم و «لا» مزيدة للتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ وهو قول أكثر المفسرين، وأما ما قيل: إن المعنى: فلا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، فيأباه تعيين المقسم به، وتفخيمُ شأن القسم به ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ أي بمساقطها وهي مغاربها، وتخصيصها بالقَسَم، لما في غروبها من الدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير، أو بمنازلها ومجاريها، فإن له في ذلك من الدليل على عظيم قدرته، وكمال حكمته، ما لا يحيط به البيان.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ اعتراضٌ قُصد به المبالغة، في تحقيق مضمون الجملة القسميّة وتأكيده.

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴾ أي كثير النفع، لاشتماله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد، وكريم عند الله تعالى.

﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴾ مصون من غير المقربين من الملائكة، لا يطلع عليه من سواهم، وهو اللوح المحفوظ، وقيل: مصون من التبديل والتحريف، ويراد به المصحف الشريف.

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ أي القرآن. المراد بالمطهرين الملائكة،

فالمراد بهم المطهرون من الأحداث، فيكون نفياً بمعنى النهي، أي لا ينبغي أن يمسَّه إلاَّ من كان على طهارة.

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ صفة للقرآن، أي منزل من عند الرحمن.

﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ الذي ذكر نعوته الجليلة الموجبة لإعظامه، وهو القرآن الكريم ﴿ أَنتُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ مُّدْهِنُونَ ﴾ أي متهاونون به، كمن يدهن في الأمر، أي يلين جانبه ولا يتصلب، تهاوناً به.

قال ابن عباس: أي مكذّبون، والمدهن والمداهن الكذَّاب والمنافق، والإدهانُ: الجريُ في الباطل، ثم قيل للمكذب: مدهن.

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ أي حظكم ونصيبكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي تضعون التكذيب موضع الشكر.

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ لولا للتحضيض، أي فهلاَّ إذا بلغت الروح الحلقوم، وتداعت إلى الخروج، عند معالجة سَكَرات الموت.

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ أيها الحاضرون تنظرون إلى ما هو فيه من الغَمَرات، وهو يودِّع الحياة.

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ علماً وقدرة وتصرفاً ﴿ مِنكُمْ ﴾ حيث لا تعرفون من حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدة، من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها، وأسبابها، ولا أن تقدروا على دفع أدنى شيء منها، ونحن المتولون لتفاصيل أحواله بملائكة الموت ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ أي لا تدركون بذلك لجهلكم بشؤوننا.

﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أي غير مربوبين ومملوكين، من دان السلطانُ رعيته: إذا ساسَهم، والدينُ الجزاء، أي غير مجزيِّين يوم القيامة، وأصل التركيب للذل والانقياد.

﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ أي إن كنتم غير مربوبين ومجزيّين، فهلاَّ ترجعون الروح إلى مقرِّها، عند بلوغها الحلقوم؟ ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في اعتقادكم أن لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء[1]! ! وقال الطبيعي: البقاء بالغذاء، وزوالُ الأمراض بالدواء، فما بال الطبيعي لا يقدر على أن يرجع النفس من الحلقوم؟.

---

(١) الغرض من الآية: بيانُ عجز البشر عن ردِّ الموت، أو دفعه عنهم، وكأن الآية تقول للمكذبين الكفار: إن كان الأمر كما تزعمون أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا إله يجازي العباد، فهلاَّ تردّون روح من يعزُّ عليكم إذا بلغت الحلقوم؟! وإذا لم يمكنكم ذلك وهو أمر مستحيل، فاعلموا أن الأمر بيد ربِّ الأرباب.

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي فأما إن كان المتوفَّى من السابقين في الخيرات والدرجات، عبر عنهم بأجلّ وأشرف أوصافهم.

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

﴿ فَرَوْحٌ ﴾ أي فله استراحة، وفسر بالرحمة، أي بالحياة الدائمة ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ أي رزق طيب ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي ذات تنعم.

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ عبّر عنهم بالعنوان السابق، إذ لم يذكر لهم في ما سبق وصف سواه، كما ذكر للفريقين الآخرين.

﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾ .

﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ إخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض، والالتفات للتشريف، ويحتمل أن يكون المعنى: فسلام لك يا رسول الله منهم، فإنهم في سلامةٍ، لا يهمُّك أمرهم.

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وهم أصحاب الشمال، وصفوا به، ذمّاً لهم، وإشعاراً بسبب ما ابتلوا به من العذاب.

﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

﴿ فَنُزُلٌ ﴾ أي فله ضيافة كائنة ﴿مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ يشرب منها بعد أكل الزقوم.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي إدخالٌ في النار المستعرة، وقيل: ذلك ما يجده في القبر من سموم النار، وفي هذه الآية إشارة إلى أن الكفر كله ملة واحدة، وأن أصحاب الكبائر من أصحاب اليمين، لأنهم غير مكذبين.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي الذي ذكر في هذه السورة الكريمة ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي حق الخبر اليقين، وذلك نوع تأكيد، يقال: هذا من حق الحقّ، وصواب الصواب، أي غايته ونهايته.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي فنزّه ربك عن الظلم والعجز، فهو الذي يجازي العباد بالحق والعدل. روي عن عقبة بن عامر الجهني قال: لمَّا نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعِكم» ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»[1] وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة، لم تصبْه فاقةٌ أبداً»[2]

---

(١) أخرجه أبو داود ١/ ٢٠٠ وأحمد في المسند ٤/ ١٥٥.

(٢) أخرجه ابن عساكر وله قصة لطيفة ذكرها الحافظ ابن كثير ٤/ ٣٠٢ وهي: أن عبد الله ابن مسعود لمَّا مرض مَرَضه الذي تُوفّي فيه، عاده الخليفة عثمان بن عفان، فسأله: ما تشتكي؟ ـ يريد ما هو الداء الذي نزل بك ـ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمةَ ربي، قال: ألاَ آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيبُ أمرضني، قال: ألاَ آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك!! ـ وكان عنده خمس بنات ـ فقال له ابن مسعود: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرتُ بناتي يقرأن كل ليلةٍ =

والله أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين.
والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الواقعة».

* * *

= سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة، كلَّ ليلة، لم تصبه فاقة أبداً» اهـ.

سورة الحديد

مكية وهي تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ التسبيح أسند ههنا إلى غير العقلاء، وأريد به معنىً عاماً، شاملاً لما نطقَ به لسانُ المقال، كتسبيح الملائكة، والمؤمنين، ولسانُ الحال كتسبيح غيرهم، فإن كل فردٍ من أفراد الموجودات، يدلُّ بحدوثه على الصانع القديم، الواجب الوجود، المتصف بالكمال، المنزّه عن النقصان، وهو يسبِّح بطريقةٍ لا نعلمها، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1] ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي الغالب الذي لا يُغلب الحكم في صنعه وتدبيره.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي التصرف الكلي فيهما من الموجودات

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٤٤.

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي القادر على الإحياء والإماتة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، أي مبالغ في القدرة، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ أي السابق على سائر الموجودات، لما أنه مبدئها ومبدعها ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ أي الباقي بعد فنائها ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ وجوداً لكثرة دلائله الواضحة ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ حقيقة فلا تحوم حوله العقول، لكونه غير مدرك بالحواس ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عالم بكل ذرة في الكون، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾ استواءً يليق بجلاله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ﴾ أي يعلم سبحانه كل صغيرة وكبيرة، ما يدخل في باطن الأرض من بذور وأمطار، وما يخرج منها من زروع وثمار، وما ينزل من السماء من أرزاق وأقوات، وما يصعد إليها من ملائكة وأعمال ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ بالعلم والقدرة[1]، وبالفضل والرحمة، وهو تمثيل لإحاطة علمه تعالى بهم، أينما داروا، وحيثما ساروا ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لإحاطة علمه تعالى بأعمالهم.

---

(١) المراد بالمعيَّة هنا معيَّةُ العلم، لا معيَّةُ الذات، كما نبَّه عليه الحافظ ابن كثير ٤/ ٣٤٥ حيث حكى الإجماع على ذلك.

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ تكرار للتمهيد لقوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ أي إليه وحده لا إلى غيره مرجع حساب الخلائق.

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ ﴾ أي يدخل كلاً من الليل والنهار في الآخر، فيطول هذا مرة ويقصر مرة، وهو المدبِّر للأكوان ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أي بمكنوناتها، وبما يضمرونه، العالم بالسرائر والضمائر.

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الخطاب لكفار قريش، أي وحِّدوا الله وأطيعوه، وصدِّقوا بالله ورسوله ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ ﴾ أي جعلكم خلفاء في التصرف فيه، عبَّر عما في أيديهم بذلك، تحقيقاً للحقّ وترغيباً لهم في الإنفاق، فالمنفق في تصرفه في هذه الأموال بمنزلة الوكيل، يسهل عليه الإنفاق منه ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ أي ثواب عظيم هو الجنة.

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ ﴾ أيْ أيُّ شيء حصل لكم، وأيُّ عذر لكم في ترك الأمان؟ ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ ﴾ حال من ضمير ﴿لا تؤمنون﴾ لتوبيخهم على الكفر، أي وأيُّ عذرٍ لكم في ترك الإيمان، والرسول يدعوكم إليه بالحجج والآيات ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقكم،

بالإيمان من قبل، وذلك بنصب الأدلة على وحدانيته ووجوده!! ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم حقاً مصدِّقين بربكم، فهذا أحرى الأوقات لإيمانكم!!.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ حسبما يعرض لكم من المصالح، نزَّل عليه آيات واضحات ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾ أي ليخرجكم الله من ظلمات الكفر، إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يهديكم إلى سعادة الدارين، بإرسال الرسل، وتنزيل الآيات.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ توبيخ لهم على ترك الإنفاق المأمور به، بعد توبيخهم على ترك الإيمان، بإنكار أن يكون لهم في ذلك أيضاً عذر، أيْ وأيُّ شيءٍ لكم أن لا تنفقوا فيما هو قربة إلى الله تعالى؟ ما هو له في الحقيقة، وإنما أنتم خلفاؤه، في صرفه إلى مستحقيه؟ ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ تأكيد للتوبيخ، فإن ترك الإنفاق بغير سبب قبيح منكر، ومع تحقق ما يوجب الإنفاق، أشد في القبح، وأدخل في الإنكار، كأنه قيل: وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله، والحال أنه لا يبقى لكم منها شيء، بل تبقى كلها لله تعالى؟ وإظهار الاسم الجليل، لزيادة التقرير، وتربية المهابة ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ﴾[1] بيان لتفاوت

(١) في الآية حذف تقديره: لا يستوي من أنفق وقاتل قبل الفتح، ومن أنفق وقاتل بعد الفتح، وإنما حذفه لدلالة ما بعده عليه.

درجات المنفقين، حسب تفاوت أحوالهم في الإنفاق، أي لا يتساوى عند الله من أنفق ماله في سبيل الله، وقاتل أعداء الله نصرة لدينه، قبل فتح مكة، ومن أنفق وقاتل بعد فتح مكة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى من أنفق قبل الفتح وقاتل ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ أي أرفع منزلة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا، قبل عزة الإسلام، وقوة أهله، عند تمام الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال، وهم السابقون الأولون، من المهاجرين والأنصار، الذين قال ﷺ فيهم: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[1] ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وكل واحد من الفريقين، وعده الله المثوبة الحسنى، وهي الجنة، لا الأولين فقط ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بظواهره، فيجازيكم بحسبه.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيله تعالى، رجاء أن يعوِّضه، فإنه كمن يقرضه؟ وحسنُ الإنفاق بالإخلاص فيه، وتحري أكرم المال، وأفضل الجهات والإعطاء بطيب نفسه ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي فيعطيه أجره أضعافاً ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وذلك الأجر كريم في نفسه، حقيقٌ بأن يتنافس فيه المتنافسون، وإن لم يضاعف، فكيف وقد ضوعف أضعافاً كثيرة؟.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري ٧/ ٢٨ ولفظه: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفه» أي نصف المُدِّ. . وانظر جامع الأصول ٨/ ٥٥٣.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ أي تكون أنوارهم ساطعة، ووجوههم مضيئة كإضاءة القمر، حين يمرون على الصراط، وأنوارهم تتلألأ ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم بأيمانهم ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي يقال لهم: بشراكم، أي ما تبشَّرون به اليوم ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي ما ذكر من النور والبشرى بالجنات المخلدة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا غاية وراءه.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا﴾ أي انتظرونا، يقولون ذلك، لما أن المؤمنين يُسرع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف على ركاب تُزف بهم، وهؤلاء مشاة ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي نستضيء منه ﴿قِيلَ﴾ من جهة المؤمنين تهكماً بهم وسخريةً ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي إلى الدنيا ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ فالتمسوا النور، بتحصيل مباديه من الإيمان والعمل الصالح، وإنما قالوه تخييباً لهم، وتهكماً بهم ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ أي بين الفريقين ﴿بِسُورٍ﴾ أي حائط ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ﴾ أي باطن السور، وهو الجانب الذي يلي الجنة ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ﴾ من جهته ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ أي النار.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين من وراء هذا السور ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾؟ في الدنيا، يريدون موافقتهم لهم في العبادات والغزوات ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ كنتم معنا بحسب الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ محنتموها

بالنفاق وأهلكتموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ في أمر الدين ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ الفارغة، من جملتها الطمع في انتكاس أمر الإسلام ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ﴾ الكريم ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ أي غركم الشيطان، بأن الله عفو كريم لا يعذبكم.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ أي فداء ما يفتدى به ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ أي ولا من الكفار ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ﴾ لا تبرحونها أبداً ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ﴾ أي أولى بكم، لما أسلفتم في الدنيا، وعن ابن عباس: هي مصيركم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي النار، قرناؤهم الشياطين، وجيرانهم الكفار، وطعامهم الزقوم، وشرابهم الحميم.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ روي أن المؤمنين كانوا مجدبين بمكة، فلما هاجروا أصابوا الرزق وفتروا عما كانوا عليه فنزلت، قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى إلا أربع سنين. والمعنى: ألم يَجِئ وقت للمؤمنين، أن تخشع قلوبهم لذكره تعالى، وتطمئن به، ويسارعوا إلى طاعته بالامتثال لأوامره، والانتهاء عما نهوا عنه، من غير توان ولا فتور، من أَنَى الأمرُ إذا جاء وقتُه ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي القرآن، ومعنى الخشوع له: الانقيادُ التام لأوامره ونواهيه، والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ نهي عن مماثلة أهل الكتاب، في قسوة القلوب، فيما

حكى عنهم بقوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وذلك أنهم كانوا إذا سمعوا التوراة والإنجيل، خشعوا لله، ورقَّت قلوبهم، فطال عليهم الزمان، وزالت عنهم الرقَّةُ وقست قلوبهم باتباع الشهوات ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي خارجون عن حدود دينهم.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة، بإحياء الأرض الميتة بالغيث، للترغيب في الخشوع والتحذير من القساوة، والمعنى: اعلموا أن الله يحيي الأرض القاحلة المجدبة بالمطر، فكما يحيي الأرض بالمطر، كذلك يحيي القلوب القاسية بالحكمة ونور الإيمان ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي وضحنا وفصَّلنا هذه الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تعقلوا ما فيها وتعملوا بموجبها.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ أي المتصدقين والمتصدقات ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي تصدَّقوا لوجه الله وابتغاء ثوابه، هم الذين يضاعف الله لهم الأجر والثواب، ولهم الجنة دار النعيم جزاء إحسانهم وإخلاصهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ كافة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ قال مجاهد: كلُّ من آمن فهو صدِّيق، وقرأ هذه الآية، أي أولئك بمنزلة الصدّيقين ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي والذين استشهدوا في سبيل الله ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي لهم مثل أجرهم ونورهم، وقد حذف أداة التشبيه تنبيهاً على قوة المماثلة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ لا يفارقونها أبداً.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ بعدما بيَّن حال الفريقين في الآخرة شرح حال الدنيا، التي اطمأن بها الكفار، من محقرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء، فضلاً عن الاطمئنان بها، وأنها مع ذلك سريعة الزوال ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي الحُرَّاث، أو الكافرين بالله لأنهم أشد إعجاباً بزينة الدنيا ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ أي النبات الحاصل ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يجفُّ بعد خضرته ونضرته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد ما رأيته ناضراً مونقاً وإنما لم يقل فيصفرُّ، إيذاناً بأن اصفراره مقارن لجفافه ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ هشيماً متكسراً.

وبعدما بيَّن حقارة أمر الدنيا، تزهيداً فيها، وتنفيراً عن العكوف عليها، أشار إلى فخامة شأن الآخرة، وعظم ما فيها من اللَّذات والآلام، ترغيباً في تحصيل نعيمها، وتحذيراً من عذابها فقال: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكفار، لأنه من نتائج الانهماك في شهوات الحياة الدنيا ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة للمؤمنين ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ لا يُقادر قدرُه ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ

﴿ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي لمن اطمأن بها، ولم يجعلها ذريعة إلى الآخرة. الحياة نعمة بل هي أصل لجميع النعم، وهي غير مذمومة، لأنه تعالى عظَّم المنَّة بخلق الحياة فقال: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾؟ فدلَّ هذا أن الحياة الدنيا غير مذمومة، بل المراد أن من صرفها إلى طاعة الشيطان فذلك المذموم.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿سَابِقُوٓاْ﴾ أي سارعوا مسارعة المتسابقين في الميدان ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي إلى موجباتها من الأعمال الصالحة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كعرضهما، وإذا كان عرضها كذلك، فما ظنك بطولها؟ ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فيه دليل أن الجنة مخلوقة بالفعل، وأن الإيمان شرط لدخولها ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وُعد من المغفرة والجنة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ من غير إيجاب ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي لا غاية وراءه.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كجدب، وزلزالٍ وعاهة في الزروع والثمار ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كمرضٍ، وآفة ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ إلا مكتوبة، مثبتة في علم الله وفي اللوح المحفوظ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي نخلق المصيبة ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي إثباتها في كتاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه تعالى فيه عن العدة والمدة.

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ أي أخبرناكم بذلك، لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نعم الدنيا ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا ﴾ فرح المختال الفخور[1] ﴿ بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أي أعطاكم الله منها، فإن من علم أن الكل مقدَّرٌ، يفوت ما قُدِّر فواتُه، ويأتي ما قُدِّر إتيانه لا محالة، لا يعظم جزَعه على ما فات، ولا فرحُه بما هو آت، والمراد به نفي الأسى المانع عن التسليم لأمر الله تعالى، والفرح الموجب للبطر والاختيال، ولذلك عقَّبه بقوله: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي لا يحب كل متكبر، يفخر على الناس بما أعطاه الله من مالٍ أو جاه.

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ بدل من كل مختال، فإن المختال بالمال يضنُّ به غالباً ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ ﴾ أي يُعرض عن أوامر الله، ولم ينته عما نهى عنه، ويبخل عن الإنفاق في سبيل الله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي فإن الله غنيٌّ عنه، وعن إنفاقه، محمود في ذاته، لا يضره الإعراض عن شكره، بالتقرب إليه بشيء من نعمه، وفيه تهديد، وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق.

---

(١) ليس المراد بالنهي عن الحزن والفرح، اللذين لا ينفك عنهما الإنسان، فإنه ليس من أحدٍ إلا وهو يحزن ويفرح، ولكنَّ المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمته شكراً، وإنما المراد الحزن المخرج لصاحبه عن الصبر، والتسليم لقضاء الله، والفرح الملهي عن الشكر، فهذا هو الذي نبَّه إليه القرآن.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي الأنبياء إلى الأمم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والمعجزات الساطعات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي جنس الكتاب الشامل لجميع الكتب السماوية ﴿وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل، والمراد بإنزال الميزان: إنزال أسبابه، والأمر بإعداده، وكذا قوله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ أي خلقناه، كقوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ وذلك أن أوامره تعالى وقضاياه، تنزل من السماء بوحيه وأمره، وبتعليمه وإرشاده، وبذلك تعلَّم الإنسان إخراج الحديد وصنعته ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ أي قوة شديدة، لأن آلات الحروب تتخذ منه ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما من صنعة إلا والحديد أو ما يُعمل بالحديد آلاتها، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ علماً يتعلق به الجزاء ﴿مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ باستعمال السيوف والرماح والدبابات، والمدافع، في مجاهدة أعدائه، وقوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي غائباً عنهم وغائبين عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ جيء به تحقيقا للحق وتنبيهاً على أن تكليفهم بالجهاد ليس لحاجته في إعلاء كلمته، بل إنما هو لينتفعوا به، ويصلوا إلى الثواب، وإلا فهو غني بقدرته وعزته، في كل ما يريده.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ تكرار القسم للاعتناء بالأمر، أي وبالله لقد أرسلناهما، خُصّا بالذكر، لأنهما أبوان للأنبياء عليهم السلام ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ بأن استنبأناهم، وأوحينا إليهم الكتاب

﴿فَمِنْهُم﴾ أي من الذرية ﴿مُّهْتَدٍ﴾ إلى الحق، ومؤمن بالكتاب والرسل ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي خارجون عن الطريق المستقيم.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۙ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أي أرسلنا رسولاً بعد رسول، حتى انتهى إلى عيسى بن مريم، وأنزلنا عليه الإنجيل ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي جعلنا في قلوب أتباعه الرِّقَّة والرحمة، للتراحم والتعاطف بينهم، يعني أنهم كانوا متوادين متراحمين بعضهم مع بعض، كأصحاب رسول الله ﷺ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي ورهبانية مبتدعة من عندهم، وهي المبالغة في العبادة بالرياضة، والانقطاع عن الناس، ومعناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان، والراهب هو الخائف، فعلان من رهب، كخشيان من خشي، وسبب ابتداعهم إياها، أن الجبابرة ظهروا عليهم بعد رفع عيسى عليه السلام، فخافوا أن يفتنوا في دينهم، فاختاروا الرهبانية في قلل الجبال ﴿مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي لم نفرضها عليهم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع، أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله تعالى ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ من حيث إن النذر عهدٌ مع الله لا يحلُّ نكثه، لا سيما إذا قصد به رضاء الله تعالى، وأنهم لم يراعوها بل ضيَّعوها وضموا إليها التثليث والاتحاد ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ إيماناً صحيحاً، وهو الإيمان برسول الله ﷺ، بعد رعاية رهبانيتهم لا مجرد رعايتها، فإنها بعد البعثة لغوٌ محض، وضلال بحت، وأنى لها استتباع الأمر؟ ﴿أَجْرَهُمْ﴾ أي ما يخص بهم من الأجر ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ أي خارجون عن حد الاتباع والطاعة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي بالرسل المتقدمة ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ أي بمحمد رسول الله ﷺ، وفي إطلاقه إيذان بأنه عَلَمٌ فرد في الرسالة، لا يذهب الفهم إلى غيره ﴿ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ ﴾ أي نصيبين ﴿ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ لإيمانكم بالرسول ﷺ، وبمن قبله من الرسل، لكنْ لا على معنى أن شريعتهم باقية بعد البعثة، بل على أنها كانت حقة قبل النسخ ﴿ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ يوم القيامة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ ﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ أي مبالغ في الرحمة والمغفرة لكل من تاب وأناب.

﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾.

﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ متعلق بمضمون الجملة الطلبية، التقدير: إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله، يؤتكم كذا، لئلا يعلم الذين لم يسلموا من أهل الكتاب أي ليعلموا، و «لا» مزيدة كما ينبىء عنه قراءة ليعلم ﴿ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾ أي ليعلموا أنهم لا يقدرون على شيء من فضله، أن يتصرفوا في أعظمه وهو النبوة، فيخصّونها بمن أرادوا، فالنبوة فضل من الله يعطيه من يشاء من خلقه ﴿ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾ في ملكه وتصرفه ﴿ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ ﴾ من عباده ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله، وقد جوز أن يكون الأمر بالتقوى والإيمان لغير أهل الكتاب، فالمعنى: اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم، برسول الله ﷺ، يؤتكم ما وعد، من آمن من أهل الكتاب من الكفلين، والله أعلم بأسرار

كتابه[1]، وصلوات الله وسلامه على خير خلقه محمد، و على آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحديد»

* * *

(١) الآية ردٌّ على اليهود والنصارى، لأنهم كانوا يقولون: الوحي والرسالة في بني إسرائيل، ولهذا لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ، فردَّ الله عليهم ذلك الافتراء الكاذب، والزعم الباطل، وبيَّن أن فضله ليس محصوراً في طائفة، وليس بيد أحد، حتى يحجبه عن خلقه، وإنما أمر النبوة والرسالة بيد الرحمن وحده، يجعلها فيمن يشاء من عباده ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ وكفى بهذا خزياً للمفترين من اليهود والنصارى!!.